L A I L A A L - A T R A S H

روايات

مكتبة نوميديا 218

Telegram@Numidia_Library

أبناء الريح

ليلى الأطرش

الأهلية

أبناء الريح

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب : 7855 عمّان 11118 ، الأردنّ
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ،
بجانب البنك المركزيّ الأردنيّ ، مكتب القاصة ، بناية 34

◆

أبناء الريح / رواية عربيّة
ليلى الأطرش / الأردنّ

الطبعة العربيّة الأولى ، 2012
حقوق الطبع محفوظة
◆

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** 95297109 7 00962 ، الأردنّ

الصفّ الضوئي : **إيمان زكريّا خطّاب ، عمّان ، هاتف** 079/5349156

All rights reserved.*No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة . *لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، بأيّ شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطّيّ مسبق من الناشر .*

رواية

ليلى الأطرش

أبناء الريح

بعل

يا حارسَ الأبعاد الثلاثة

إله المطر والقوّة والريح

مصدر خصب الكائنات

لماذا تركْتني؟

1

ودعا اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي

سفر التكوين

تجتاحني الرغبة في أن أعرف.. جارفة تدفع بي إلى الذكرى.. أتعذب بصورة طفلة في دار رعاية وتكون ابنتي.. أصدّ الرؤى والكوابيس في شهر من التوجس والحيرة ومغالبة الذات فتلاحقني أكثر.

تلحّ صورٌ لم تبهت.. تسرق فرحي ولحظة امرأة أحب بتشكل الحياة في أحشائها فتورّدت بالخلق. اندفع هياجي وصحت بها: لماذا؟.

تصلّبت بدهشتها ثم انتفضت بالرفض: أنا لا أعرفك.. وهرولت خارجة فلمحْت دمعها.. مزّقني.

لا تدري امرأة أعشق أنني منذ التقيتها وأنا نهب للخوف من أن تكشف سرا أخفيته عنها، ومن هواجس فقدها.. وأتآكل بالتوجس والخشية من الأقدار لئلا تسرق فرحي ونورها كلما تأخرت أو غابت... أن أحلامي تفزعني فأتحسس مكانها، اشم أنفاسها وأضم نوم جسدها.. ولا تعلم أنني أحميها من أوهامي.

ابتسمت مشجعة فأعادت لي النطق من ارتباكي في لقائنا الأول.. يعلن الحب نفسه بأدوات الجسد.. ثابت كل ما فيها وطال اهتزاز حيرتي.. طبيبة متدربة تسلمت العمل بعدي بشهور.

- في الكون سبعة مليارات يتناسلون ويفرحون بولادة أطفالهم، كانت الحياة توقفت عند آدم وحواء لو فكر الناس مثلك.. لن اسمح لأوهامك أن تسلبني حلمي.

زنر الموت أفق حياتي بالخوف وسرق فرحنا.

ماذا لو؟

سؤال التوجس حملني مرغماً إلى ملجأ للأيتام تربيت فيه قبل أن التحق بعمي.. جذر وحيد تعلقت به فاضطربت نفسي أكثر.

وطفلتي المنتظرة لا جذور لها غيري.. فماذا لو؟

أتوسل السماوات أن لا تقسو على من لم تولد بعد.

- لا بد من علاجك من فوبيا الموت.. لا تريد الطفل خوفا عليه من يتمه!؟.. هذا جنون.

- بل هو خوف عاشق على من يحب.. لثمت يدها وأبقيتها في كفي.

- يحتاج الحب براح الأمل ليكبر.. يموت العشق حين يخنقه التوجس. أترك نفسك للفرح حين يأتيك.

تعادل الحب والخوف في مشاعري فخطفا سعادتها.

تطاردني صور ملجأ تربيت فيه وأخوة لي كانوا حين زلزل اتصال من لا مكان سبات الماضي، غرباء يبحثون عن قصة!.. فمن منحهم رخصة الاقتحام وبعثرة السكينة؟ وكيف يجرؤ من لا أعرف على مطالبتي بأن أوقظ سبات ثلاثين من السنين لأضيء ظلمة سرداب ألقيت فيه ما قاسيت وما أعرف.

أنكرت لهم نفسي وصور تلك الدار تهزمني.

يتلوّى الطريق إلى دار الرعاية.. ضيّق.. ينسلُّ في ارتفاع الجبل العتيق.. هَرِم أكثر. توالدت على جانبيْه المحال والورش، أمسك بعضها برقاب بعض.. رُقعٌ طرّزَت طرف ثوب مهترئ.. بيوت قديمة متصلة أضاعت لونها في عنف الزمن. استبدلت ناسها بعمّال نجارة وسمكرة وبقالات.. محال مختلطة مشوّشة كأفكاري.. تكسرّت حوافّ درجاتها.. هاجم الصدأ نوافذها واسودّت واجهاتها بطحالب الرطوبة.. تغضّنت بتجاعيد الأيام وبهدلة الكهولة.

تختلف حقيقة المسافات بالخبرة والانكشاف.

في طفولة محاصرة بدت الأزقة ذاتها فسيحة.. كانت لنا شوارع واسعة، نحفظ أسماءها، نعرف تعرُّجاتها والباص يئن صعودا أو هبوطا، يرتجّ مع فرامل لا تتوقف في انزلاق الصقيع واندفاع السيول فيصمت عبثُنا، ويهمهم خوف المشرفين، ويدعو السائق ربّه أن يجنبنا عثرات الطريق، ويستر عليهم وعلى عيالهم.

بخار الأنفاس المحشورة في يوم بعيد غطّى زجاج نوافذ الباص حين توقف، كان بعضنا قد رسم بيوتا على الزجاج، قليل منها اكتمل، وآخر نتركه عادة غير مكتمل ونمضي، والأولاد يرسمون على كل شيء وبأي شيء.. بأصابعنا وبأعواد الشجر وبألوان وورق.. نقيم بيوتا من بخار الأنفاس على النوافذ شتاء، ونخربشها على تراب الملاعب صيفا، ولم يسلم سور الدار من بيوت نتخيّلها.. أنقذوه من خرابيشنا بألوان وأوراق قدّمها مشرفون نفسيون وهم يحثوننا على الرسم، وشدّدت الإدارة القصاص فنجا السور من عبثنا وأعادوا طلاءه.

رسمْنا على الأوراق وجوها لا بيوت لها.

بأصبعي على بخار الأنفاس رسمْتُ بيتاً واسعاً.. بابه صغير مغلق، له نافذة صغيرة تركتها مغلقة مثله، أمامه باحة خالية سورها منخفض، واحترْت أين أترك مفتاح البيت.. وما زلت أفكّر توقف الباص.. نزل الأولاد كلّهم وأنا حائر بالمفتاح.. ألقيته في باحة البيت وبدأت أخفيه بعشب طويل.. شتمني المشرف وقال إنه تلكؤ غبي في جو عاصف وبرْد ومطر، وجرس يعلن بداية الدروس.

تركت بيتي على نافذة باص ينطلق بعيدا.

رائحة النظافة تفوح في المكان.. اعتناء بدار الرعاية لم تعرفه أيامنا، وحدها شجرة أستيريا ما زالت تسابق الطوابق. جذورها افترست الأرض عند الباب الرئيسي، تتدلّى عناقيد زهرتها البنفسجية.. جمالها سحرني دائماً، ثم صفٌ من شجرات صنوبر يحجب بعض النوافذ. تحت الشجرة الأولى منه، في صباح ليلتنا المشهودة، سألت غسّان لماذا يقبل ما يفعله به الحارس والمشرف، فصدمني جوابه.

- يمكنك مراجعة الوزارة. جميع الملفات هناك... قالت مديرة الدار وتفحّصتني بريبة.

قلت: أنا فاعل خير مغترب.. وجدْت بين أوراق أبي بعد وفاته هذه الأسماء وأمامها مبالغ معينة، لعلّه كافلها.

في الورقة أسماء إخوتي من العائلة الأولى وسنة وجودنا في الدار.

بعد شهر من التردُّد والحيرة واسترجاع الماضي كتبتها.. شحذت الذاكرة لتسترد أسماءهم من تراكم الأحداث وثقلها، غصت في تلافيفها..

حرثت ونقّبت وانتشلت أسماءهم.. الأولى.. والاسم الأول هو الذات وهو المعيار والهوية حين ينبت الأولاد بعلاّ في أرض بور وبلا جذور.

هزّت مديرة الدار كتفيها باستغراب وتفحّصت الورقة.

قلت: بي يقين أن أبي كافلهم، وأودّ أن أكمل رسالة المرحوم، وأتمنى تسهيل مهمّتي.

عيناها لا تصدِّقان.. فاعلو الخير من رجال ونساء يسابقون أعمارهم، يبحثون عن أجر يرطِّب طريق النهاية.. يقيل العثرات ويمحو أخطاءها.. مرضى يزرعون الحسنات في أكفّ حسابهم القادم.. نساء قادرات يتباهين بعطف يزدهر في الأعياد، ووفود مؤسسات أجنبية ترطن ثم تتبرّع.

- مهما كان الدافع، الوزارة وحدها يمكن أن تساعد.

- أحاول تجنب الروتين وبيروقراطية الموظفين.

- تعود الملفات جميعها إلى أرشيف الوزارة يوم يبلغ الأولاد ويغادرون، وهو الطريق الوحيد لتعرف مصائرهم.. وأنبّهك.. المهمة ليست سهلة.. مرّت سنوات طويلة على بلوغهم السن القانونية وتركهم الدور.. لكن... حاول.

قلّبت كفيها في يأس المحاولة.. تساءلت بما يشبه الرجاء: لماذا لا تكفل أطفالاً هنا؟ الكفالة أو حتى التبني إن أردت.. الإجراء بسيط إن كنت مسلماً ومتزوجاً؟.

قلت إنني مسلم عازب.. تحسّرت ثم أكدت على إمكانية كفالة مالية لأحدهم.

رافقتني في أقسام الدار.. قدّمت لي الشاي. تعلق بي طفل لأرفعه.. هزّني ما فعل حتى رغبة البكاء.. حضنته بقوة.. شق صدري واحتمى فيه.

كيف تعرف الطفولة هذا الحزن والانكسار؟.

أتخيل طفلة جميلة تحتمي بغريب وتكون ابنتي... أنتفض وأغالب دمعي وأرفض هواجسي وألعن الوسواس الخناس.

مديرة الدار ودودة في حجابها تجاوزت الأربعين، متناسقة القوام.. تبدّل أثاث غرفتها.. اختفت خزانة أسرار قلبت حياتنا ليلة كسرنا قفلها.. بدّدت أوراقها بعض حيرتنا وبعثرت نفوسنا.

ظلت تلك الخزانة محطّ قلوبنا حتى حطّمنا قفلها، وكانت آخر ما لمحْتُه من الدار يوم نقلونا إلى حيث لا نعلم.

ولا أحد من الأولاد يعرف متى وأين ينقلوننا.. يأمروننا بجمع أغراضنا فنعرف.. حملْتُ علبة كرتون صغيرة فيها ثيابي، والخوف والتوجّس يردّان خطوي.

كلّما غيّروا لنا الدار يداهمني الخوف والضياع.

سيّارة نقل صغيرة تنتظر عند المدخل.. تأخرنا فسبّنا سائقها.. أدركنا صغارا من شتائمهم لأمّهات خلّفْننا أن أمّهات الدور لم ينجبن أحدا منا فنحتار وأحيانا نبكي.. نبكي حين يؤلمنا كلام المشرفين أو نضيق بأسئلة اختلافنا، نبكي بصمت أو ننفجر فيقولون إننا نبكي لغير سبب.

كان الطعام واختفاء المصروف أهم أسباب تمردنا وعقابنا في دور الرعاية.

عند زاوية الملعب الواسع في دار الرعاية الثانية في حياتي اتخذنا قرارنا.. سبقته مشاورات طويلة وخطط تبدّلت.

سرنا من طرف الملعب الكبير حتى غرفة المدير ونحن نهتف ونصرخ ونرفع قبضاتنا في الهواء: يسقط العدس مع الملوخية.. الملابس الجديدة لنا لا لأولادكم.. سرقوا التوفير يا مدير.. لا عدس ولا فول بعد اليوم.. هل طار الدجاج يا حرامية؟.. مصروفنا حقنا لا للنهب والسلب.. لا شاي بدون سكّر بعد اليوم.. يا حرامية يا حرامية بدّلتوا اللحمة بملوخية.. هاتوا أجرة الأولاد مش بالسُخرة والفساد.

لم نعرف يومها أننا نظّمنا احتجاجاً ومظاهرة حتى وصفوا ما فعلناه بكلمات كهذه، بل وبالتمرّد والعصيان.

هاجت الإدارة في ارتباك وفزع.. لعنوا «آباء أولاد الحرام الذين لا يثمر فيهم معروف» فهربنا من عصيّهم، كوَّرنا أجسامنا وأخفينا رؤوسنا.. دشدشوا أبداننا فأمدّنا اتفاقنا بالقوة والصبر.. حبسونا في غرفنا، ومن بين شتائمهم والوعيد عرفنا أننا «تسمّمنا الدجاج والأرز»، ولكننا كالبواليع لا نحتفظ بشيء ولا نشبع، والملابس الجديدة ظلت في الخزانات حتى أكلها العثُّ ثم رموها فنحن نحبّ الأسمال ونرفض تغييرها.

لم نقل إنه كان أسبوع العدس، عدس مجدّرة، وعدس بسلق، وشوربة عدس حامضة وعدس مع السوس. أمّا الدّجاج والأرز فيراودان أحلامنا وعلى موائد يتفنن نومنا في ترتيبها وتنوعها.. لكن. ربما تشوّشت أفكارنا حد أن تخلط بين بروتين الدجاج وبروتين العدس من كثرة ما نسمعه من العاملين عن فوائد البروتين النباتي في الفول والعدس، وفضله

وتفوقه على البروتين الحيواني في الدجاج المسمّن بالهرمونات..لهذا لم تعد أفكارنا ولا معدنا تفرق بين أنواع البروتين، وكل شيء في دور الرعاية جائز.

ولم نصف لهم كيف تتلوى معدنا بجوعها بينما نقطع السوق في طريقنا إلى المدرسة.. تثير عصاراتها فواكه فوق بسطات تزيّن الواجهات، وروائح أطعمة لم نجربها لكنها تهاجم أحلامنا.

أفرجوا عنا بعد اعتراف صريح بأننا « طفحنا» الدجاج واللحم والأرز، لكننا نسينا.

* * *

منذ وعيت كرهت دار الرعاية.

عذبتني أحلامي فيها وزادت من حيرتي.

في ما يراه النائم تأتي.. لا ملامح، أحاول إبقاءها فتشيح، أتعلّق بثيابها فتتملّص. أتمسّك بردائها فتفلت ولا تلتفت لبكائي.. تغيب فأعفّر جسدي بالتراب وأتمرّغ على ألمي.

حلمان تناوبا ليلي.. امرأة غرست وجهها في ضباب كثيف.. برودة صقيع تهب وتجمّدني، ألاحق وجها يتحاشى عينيّ.. تحملني إلى شفا جرْفٍ سحيق وتقف بي عند حافته. رأسي يطارد دفء صدرها.. أتمازج مع نبضها فألقيه عليه.. ترفع رأسي إلى كتفها.. يغفو تعبي وخوفي لحظة. فجأة ترميني في ظلمة الجرف السحيق.. أهوي.. وأظلّ أهوي.. أصحو برعب صراخي.

من رؤيا بين خيالٍ وحقيقة جاهدت لأصطاد الهدوء لروحي.. ضجيج وعراك ورجل ثائر وامرأة تتلوّى على الأرض.. لاهية عن صراخي.. تفلت قبضة يدها مني فجأة.. أهبّ مختنقا بذعري.

فمن يملك الحقّ في أنْ يزلزل موات الذكريات؟ ولماذا اهتزّ عالمي واضطرب بدقات غرباء يبحثون عن حكاية عشتها في دور الرعاية، قصة لو بدلت الشك فيها باليقين فسيلتهم عمري ومن حولي.

تبرّأت من دورٍ سترت يتمي.

سنوات طويلة وأنا أجبر ذاتي على دحر إشارات حبلى بالإيحاء.. أنكرت الدلالات في أحاديث عمّي وزوجته وصديقه حامد.. حبستها في عمق من ذاتي وحتى أطاحت بها ليلة الحمّى وهذيان عمّي.. كثيراً جاهدت لأهدأ من عواصف الأسئلة!

ويحاول غرباء نثر عالمي بثمن بخس! أن تحتلّ قصتي مواقع الإنترنت أو تنقلها الصحف؟! وقد يشتهر برنامج لأنه استدرجني وكشف قصّة أهلتُ عليها تراب السنين. يرويها بعضهم معجباً أو مستهجناً.. مُشْفقا أو حتى متعاطفا؟.. من منهم يعرف ثمن الليالي حين تكون وحدك، ولا تريد وحدك.. جذر بلا تربة.. عطش بلا ماء.. أقدامك مغروسة في اهتزاز لا تثبت عليه ولا من يسندك.. حياتك فراغ يقود إلى فراغ ولا أفق بينما تترنح على حبل مشدود من عذابات نفسك.

«مولد أخرج منه بلا حمص».. أقضم شرنقتي وأتعرّى.. أكشف عورتي وعورة أمّي ومن خلّفوني، وكلّ ما رأيْتُه أو ما لم أره.. خبرت أو ما زلت أجهل.. أصدّق خديعة قصة الكفاح! حكاية الإرادة والمثال لأبناء

دور الرعاية ليتقبّلوا بؤسهم.. من يدري عن عطش النفوس في وحدتها؟ عن أرواح هائمة لا تهدأ.. وقلوب لم تجرّب إحساس أن يكون رأسك على صدر يتوهّج بالدفء فيسري إليك، أن تخرج من صقيع روحك بلمسة حنان حرّمته عليك أقدارك.

فمن كتب عليك قهرك؟

كيف أصف حيرة ليالي وسفر روحي في فراغ الوحدة حتى اشتهاء الموت؟

وتصرُّ من لا أعرف على أني نجحت وقهرت اليتم ؟ من يدري عن يتم الروح وبرودة الليالي حين تكون وحدك ولا تريد وحدك؟.. طفل وشاب وزوج ثم أب وأنت وحدك.

حتى في حضن زوجة أحب صارت عالمي يرتفع حاجز من خوفي على سرّ أخفيته عنها.. جدار من عدم انتمائي لأحد يقعدني عن البوح بلغز حياتي، فأحتمي بحذري من نبش ماض لو صدَّقْتُ حدسي عنه لأحرقت نفسي وعمّي.

وماذا أقول لزوجتي وأهلها: اسمعوا يا جماعة الخير، أنا كذاب.. أنا من لمم الملاجئ، خدعتكم فأسقطت من عمري ما يُخجل نجاحي ويُحرج ثراء عمّي! أنا وهو تواطأنا على دفن جزء من سنواتي.. وأي جزء!؟

وكيف أفسرّ نجاح زواج بنيْتُه على كذب؟ وهل تقدّر من أحببت أنني دفنت سرّي خجلا من تفاصيله؟ حرمتها من حقها في قبول أو رفض ماضيً باختيار حرّ، بلا وهم أو تدليس؟ ثم أخفيت عنها حقيقة علاقتي بعمّي؟

تتعلم في الملاجئ دهاء الحياة، كحرباء تستشعر الخطر فتتلون.. يجيد أطفال الملاجئ شروط البقاء ولعبته بالضرورة.. وزوجتي شابة تربت في أسرة محبة، ديدنها الخطوط المستقيمة، فلم تجبرها الحياة على المراوغة والدهاء لتبقى.

في لحظات كثيرة حين أنتشي بحبها أقاوم إلحاح البوح.. أن ألقي برأسي على صدرها وأنفث ما يثقل روحي فيردني خوفي دائما.. قد ترفض دوافع عاشق كذب خشية أن يفقده الصدق امرأة أحبها.. لينير سواد ماض لخجله كل الدلالات فيه. وكيف أعتذر عن لهيب أسئلة تشوي ولا تهدأ؟ وجذور مزروعة في رمال الاهتزاز نازفة بشوك من لا يقين؟

طمرت سر دار الرعاية، وشكوكي عن دور عمّي في « حادثة» أمّي وأبي، لكن امرأة أحب لا تكف عن لومي لتنكري لعمٍّ ثري أحسن إلي.

كلّ ما قلته ونحن نعلن الحب إنني يتيم الأبوين كفلني عمّي الغني فتربّيت وتعلّمت في كنفه.

ثم.. دون اتفاق مسحنا، عمّي وأنا، دار الأيتام من حياتي.. هل خاف مثلي رفْض عائلتها لشاب «تربية ملاجئ»؟ أم خشي اللوم حين رماني فيها وهو وجيه قادر؟

على حافة نافذة في دارِ رعاية أنكرْتُ معرفتها، عجزْت مرّات عن وضع حدّ لليأس والرجاء في أن أعرف حقيقة وجودي ثم أنتهي.

لماذا أنا دون البشر؟

سؤالٌ زوبعة يصحو وينام معك.. يصير عمرك ويطيح باحتمالك.. تتجمّد بثلجه ثم يشعلك حقداً ورفضاً.. سؤال يمتد بينك وبين قادرٍ كتب عليك وحدك.

تتركك السماء للحيرة وتساؤلك والوحدة.. تجْبرك على السير في دروب يرسمها غرباء لأنك لا تملك غير ما يقررون، فيصير واقعٌ ترفضه هو وحده من يعترف بك.. مرغما تعتاد ما يفرضه الآخرون عليك، اسمك وعائلتك وبيتك وإخوانك ومستقبلك. ما تحب وما تكره، وبينهما كثير.

تسأل ربّك لماذا أنا؟ فيضجّ من حولك يستنكرون كفرك واعتراضك على من يملك الحياة والموت.. يستغفرون من اختار أن تكون وحدك، ويؤكّدون أن رفْضَك كفرٌ بربّ سطّر الأقدار.. كتب في لوحه المحفوظ أنْ تنْبُت بعلا في أرض بور، أن تنتسب في أوراقك لأم لم ترها.. «المدْعوَّة» التي رمتك وهربت من عارها، فاختارت الدار اسما لها في شهادة ميلادك.. أمٌ حملت بك بعلا في أرض لم تعرف خصوبة دفء أو حنان، ثم ألقت بك في أرض جدباء لتكبر بلا جذور ولا أمل.. يحرمك الله من والديْك وعليك أن تحبّه، ينجبك بلا أسرة، يقدِّر لأمّك الخطيئة، راضية أو مغتصبة، ثم تتخلّى عنك لتنجو.. وحين تسأله لماذا أنا؟ يضجّ من حولك، يطالبونك بالصبر والإيمان.. يرميك الأقارب في الملاجئ، فتسمّر عينيك على بوّابة الدار لعل رأسا يُطلُّ منها، يبحث عنك وينادِيك.. تطلب من ربّ خلقك أن تمطر سماؤه بمن يحبك، فتظل سنواتك عجافا وقلبك جفافا، وعليك أن تسبّح بحمده ليلا ونهارا.

لم يعرف أحد سرّ سنوات الملاجئ في حياتي وشكوك النفس وأسئلتها.. خنقتني الأسئلة.. تساوت معها الحياة وعدمها في أكثر الأيام، بل غلب الموت.. طوّحت بي عواصف ذاتي.. جرفتني إلى متاهات تتوالد ولا تنتهي.. أغرقتني في أعماق بلا قرار. وخانق ظلام الشك وخيوط الأسئلة.

صحْت بالسيدة على الهاتف: كان عليكم أن تتأكّدوا قبل إزعاجي وإضاعة وقتي.

- لأننا متأكّدون اتصلنا بك دكتور.

- لا تدفعوني إلى قولٍ لا يليق.. هناك التباس.. مجرد تشابه في الأسماء.

- امنح الأمل لأطفال يحتاجونه، تجربتك ستنير لهم الطريق، أنت قدوة الممكن لجميع أبناء دور الرعاية.

- لا أعرف عمّ تتكلمون، وهذه الدار؟! لا أدري أين تقع!

- سيتعلم الأولاد من إصرارك على قهر اليتم ؟ دكتور أنت...

ارتطام السماعة أحيا صوتا من عمق الذاكرة يوم خبط عمّي تيسير الهاتف بعد أول اتصال بيننا فحيّرني.

عرفت اسمه ومكانه من الأوراق ليلة كسرنا خزانة المدير، وأنه أودعني في الدار ولم يعد لأخذي فبدأت البحث عنه لأقنعه بكفالتي ولينقذني من مصيري، ويحدثني عن أمّي وأبي.

وما سبق ليلة اقتحام غرفة المدير حدث استثنائي.. لم تفشل الخطة أو تدبيرنا بوشاية أحد، والوشايات بيننا تحدث بلا دافع.. لملل. لمغايرة. وفي مرات نادرة يُعيّن الجاسوس عريفا، وربما نال وجبة إضافية!

حبسونا النهار والليل فلم نعترف.. توسّدنا البلاط. نمنا على أكتاف بعضنا وحين استيقظنا لم يكن غسّان بيننا.

ألحقونا بورشة الحدادة فلم يحضر.. مساء رأيته ذابلا مُرهقا يمشي بساقيْن منفرجتين.

سألته لماذا يقبل ما يفعلونه به فلم أصدق ما قال.

وهم ينقلونا إلى دار جديدة التصق وجه الحارس بزجاج غرفته الصغيرة عند البوابة.. التمعت عيناه إذ مرّ غسّان.. زفر حسرّة طويلة وأشاح.

* * *

في البال عصفور وعش على غصن صنوبر.. شجرة باسقة كبرنا وهي هناك وقد تجاوزت نافذة العنبر.. وقفت فيها ألملم حكاية وجودي.

بصري والحيرة يتدافعان وراء لا شيء.

زقزق فرخ في عش صغير لم أنتبه له.. تمايل بخطوٍ لم يتّزن بعد حتى طرف العش، وبعزم الوهم رفع ريش جناحيْن لم يكتملا.. زقزق فرحا وطار على الغصن بقوة ظنّها فيه.. ترنّح.. تلقفته أمه وردّته إلى عشّها.. غافلها فرخها الثاني وانطلق يجاري ما رأى.

مال.. سقط.. غرّدت العصفورة حزنها.

سابَقَتْ لهفتي موتَ الفرخ.. والممرُّ طويل لا ينتهي.. تكوّم بقعة دمٍ وزغبٍ وريشٍ لم يكتمل.. نقطة سوداء بلا حراك، وما زالت أمه تغرّد لوعتها.

بكيْتُ فرخ عصفور نفق.. دفنته تحت شجرةٍ عليها عشّ أمه.

وأنا لا يدٌ سترفعني ولا زفرة حزنٍ تودّعني.

ويحاول غرباء نتف ريشي بوهم «الأنموذج والقدوة لأطفال الملاجئ!» حتى لو رويت لهم قصّتي، لن تهدأ نفوس حائرة بسؤالها العاصف «لماذا أنا؟ ومن أنا»؟

وبلا يقين ما أعرفه أنا عن أمي وأبي.. كل ما قاله عمّي وسعاد أكدّ السطور القليلة في ملفٍّ يحمل اسمي وعمري في خزانة المدير.

جدار من شّك وعدم يقين يسوِّر حكاية والديّ فتمرّست على إنكار مؤشراته.. والإنكار فن ومنهج وعلم نفس.. تمحو الذاكرة ما يزعجها من قسوة الحياة.. تشطبه وتنساه.. صدمات المرض.. تفاصيل الأخطاء الكبيرة.. تقصيها في زاوية منها سحيقة، ثم يهيل النسيان ترابه عليها.

وفي حياتي زاوية مظلمة مفتاحها في بلدتنا البعيدة أؤجل البحث عنه بأسباب أقنع بها نفسي.. إحساس غامض يؤكد أن نبشها مدمّر فأثني نفسي بأعذار الدراسة والعمل ولا أقارب هناك، وأخشى مواجهة ماض لا أعرف ما يحمل فقبلت ما يقوله عمّي تيسير ورواية تخفي أكثر مما تبوح.. وبي يقين أن صديقه حامد مثله يعرف، تأكد ذلك يوم زرته أول مرّة بعد وصولي دبي.

بحدب والد حنون رحَّب بي حامد قال: أبوك رجل لا مثيل له. أما أمّك فأقسم على أنها كانت أشرف امرأة.

سمعت وجيب قلبي وأحسست جحوظ عينيّ، واضطرب عمّي تيسير وطال صمته.

لماذا يؤكد غريب على شرف أمّي؟

لاحظ دهشتي فأردف: كانت أمك أجمل النساء وتحبُّ أباك كثيراً.. رحمهما الله وغفر لهما.

برّر عمّي تيسير كلام صديقه وهو يبتسم: ربما لأن جمال أمك وحبها لأبيك كان حديث البلدة، الصغير والكبير، أمّك لا أخت لها بين النساء، صانت جمالها وحافظت عليه.

تحاشيْت لقاء حامد إلا لمناسبة.

يصرّ عمّي تيسير على أن حساسيتي مفرطة تجاه سيرة والديّ، ولا يعلم سرّي مع الكلمات.. حاسة كالإلهام ترسل تماساً خفيّاً إلى العقل فينتبه لكلمة ويرتجُّ الفؤاد.. إحساسٌ غامضٌ لا يُنسى يؤكد أنها لن تمرّ عابرة في قادم الأيام، ستليها تداعيات في زمان ومكان لا يمكن التنبؤ بهما.. فقط حين يتحقق حدسي تقفز الكلمة من الذاكرة حيّة وتهزّني.. قرأت يوماً أن للبشر ملائكة تحرسهم، وأن ملاكي الحارس يهمس لي يحذرني أو ينصحني ليحميني، وحارسي يؤكد أن كلمات عمّي مثقلة.. موحيّة.. مرغماً أربطها بصورة مشوَّشة بين حلم وحقيقة.. امرأة تزحف على الأرض، وصراخ وهياج وخوف.

هل للرؤية علاقة بموت أمّي؟ وكيف مات والدي؟

وأنا أقصّ رؤيتي وأتساءل عن امرأة تتلوى وضجيج قال عمّي تعوّذ من الوسواس الخنّاس.. مات أبوك بعدها بقليل، لم يحتمل حياته بدونها.

أردت أن أصدِّق قصة حبٍ جميلة.

قلت لعمّي: سأدرس الطب لأبحث عن مرض والديّ، وأعالج الناس منه.

ضحك وطالبني أن أهتم بدراستي أكثر.

* * *

وسط عائلة مكتظّة في عنبر طويل في الطابق الثاني من دار الرعاية الأولى تشكّل وعيي الطفل.

عائلتي تسعة، طفولتي فيها باردة تائهة.

كلّنا نطارد السادسة.. خمسة أولاد وأربع بنات.

قالوا لي كلّ يوم إنهم إخوتي، وهذه عائلتي، فلم أملك إلا أن أصدّق.

أمور كثيرة في عائلتي تثير الأسئلة، وأنت تتعلّم في ملاجئ الأيتام كيف تعلّق أسئلة الحيرة في زاوية من ذهنك.. تحجبها عن الآخرين فتمزّق روحك.. تكتمها وأنت تسمع عن حالك ما يريب.. تلفظه معايرة أو شتيمة فتسكت لئلا تجرّحك الحقيقة.

أدركنا نحن أولاد الدور اختلافنا دون أن يشرحه أحد.. بإحساس غريزي عرفنا أنّ ما يميّزنا ليس في صالحنا، بل كسرنا وحيّرنا وأجبرنا على قبول ما تحمل لنا الأيام لأننا لا نملك غيره ولا نستطيع ردّه.

عرَفَتْ طفولتنا، دون أن يعلّمها أحد، أن وجودنا في الدور يعني أن نحزن ونصمت ونخرس الأسئلة.

إخوتي في الأسرة الأولى ثمانية.. لهم أسماء ثلاثية فلم يتوقف أيٌّ منا عند اختلاف أسماء الآباء والأجداد في شهادات ميلادنا، وحتى دخولنا المدرسة.

سألنا أمّنا لماذا لنا أسماء آباء مختلفين ونحن أخوة؟ قالت أمر الله.. ولم نكن نعرف قبل دخول المدرسة أن أمر الله يجعل للعائلات اسم أبٍ وجدٍّ واحد.

أمرٌ آخر لم ألتفت إليه حتى وعيْت، أنني وأخوتي ولدنا جميعاً في سنة واحدة، أصغر أو أكبر بشهور قليلة، ولم يكن أحد منا يعرف عن نظام

العائلات، ولا عن ترتيب الأشقاء في الأسر خارج الدار.. كنا أصغر من إدراك أن الأخوّة تحتاج مساحة السنوات لتنمو فيها.

لنا في الدار أم صغيرة عصبية لكننا نحبها.. تنسى غضبها وتحضننا أحيانا..

بكينا كثيرا حين استبدلوها ورفضنا الجديدة.

صحونا فإذا البديلة ما زالت هناك فلم نملك غير أن نقبل.

لم يشغلني طفلا أن لنا أمّهات يتبدّلن بعد سنوات أو شهور، فلم نكن نعرف أن الحياة جعلت للإنسان أمّا واحدة، لأن لنا أمّاً في الصباح حتى الثالثة عصرا، وأخرى في الليل عصبيّة سريعة الغضب، تنام في سريرها معنا.. وحين تنعس تضربنا إن لم «ننخمد» قبلها.

وكلّ أمهات الدار يحتفظن ببعض الهدايا يحملها زوّار يأتون قبل الأعياد ولا يمكثون طويلاً.. يخرجون فتنتقي أمّنا أجمل ما تركوا وتدسّه تحت الأسرّة.. نبكي ونتمرّغ على البلاط ونصرخ حين تأخذ هدايا وزّعها القادمون علينا، فتتركنا نبكي حتى ننسى، ثم نلعب بالقديم حتى نملّه.

بعثر عائلتي الصغيرة هبوب عاصفة طوّحت بنا يوم تجاوزنا السابعة.

دخل رجلان مهيبان إلى غرفة المديرة فتجمّع أولاد الدار عند بابها.. حدث جديد كسر رتابة أيامنا.. بدأ الرجلان يؤنبان المديرة في غضب مثلما تفعل حين نخطئ.. قالا إنها كسرت القانون فأبقتنا في الدار وقد تجاوزنا الخامسة، وكان عليها أن تذكّر الوزارة بنا وتخاطبها لنقلنا.. ثم من واجبها أن تطلب إرسالنا للمدرسة، لأن الوزارة مشغولة بألف قضية أخرى غير

دور الرعاية، وخطؤها مضاعف لأننا كبرنا على الاختلاط بما يخالف الشرع والقانون.

هذا «الاختلاط» فجّر غضبها فاحمرّ وجهها.. صرخت بأننا أطفال أبرياء، والوزارة مسؤولة عن نقلنا وتحديد مستقبلنا لا هي.. وهي كتبت للوزارة مرّات فلم تتلقّ جوابا.. وأخرجت ملفا فيه أوراق ورمت به إلى أحدهم فجن الرجل ولم يفتحه واتهمها بالكذب والوقاحة.

ردت بأنها أصدق من مسئولين في الوزارة مشغولين بنهب المعونات العينية والنقدية وتوزيعها على الأقارب والمحاسيب، وآخر همومهم أمور الدور والأولاد فيها.. وماذا كان بيدها غير إبقائهم في الدار حتى تتذكرهم وزارة مسئولة عنهم لا هي. وهي لا تملك نقلهم ولا تحديد مستقبلهم.

اتهمها الأول بالكذب وقلّة الأدب فبكت مثلما نفعل. وقال الثاني كلاما لم نفهمه، عن اختلاط ذكور وإناث وشرع.

طردوا المديرة.

لم نعرف أنهم كانوا يتحدّثون عن أسرتنا، وحين فهمنا احتمينا بالسور.. جمعوا ملابسنا في صناديق كرتون صغيرة.. قالوا سننتقل إلى مكان آخر فهربنا منهم.

فصلوا الأولاد عن البنات.. احتمينا ببعضنا وقاومنا الصعود إلى الحافلة الصغيرة فجرّتنا سيدة نحيلة ورافقتنا في الحافلة فعرفنا أنها أمّنا.

يومها جرّبت جحيم الاقتلاع الأول، بل هو الثاني وإن كنت لا اذكر من الأول غير ملامح باهتة.. رجل وسيدة تحملني ثم تتركني، أتشبث بها فتبتعد.. أبكي وحدي فلا تلتفت.

دار الرعاية الجديدة واسعة من طابقين للذكور فقط، أصغر أو أكبر منا.

كثيرا كنت أهبُّ من نومي مذعورا فتضربني أمّنا.. تلفني بالغطاء لأنخمد وتعود إلى نومها سريعا.. لم تسألني عن صراخ نومي فلم تعرف عن حلم يتكرر في ليالي.. أراني أسقط في فراغ سحيق وظلمة، فأهب مع فزعي.

ملاعب الدار واسعة.. لكن لم يشغل أيا من الأولاد أن سكننا أكبر من كل البيوت حوله.. بدأنا نتلصّص من النوافذ والبوّابة فردّنا الحارس.. إحساس غريزي أكد لنا أن في تلك الدور، رغم صغرها، ما ينقص دارنا.. بالغريزة أدركنا أنه أفضل وحسدنا أطفالها.. عندهم ما لم نجرب وإن رأيناه في عيون آباء وأمهات لا يتغيّرون، يحضنون صغارهم وهم يدخلون ويخرجون ويضحكون.

سحب الآباء صغارهم من اللعب معنا، وجفل أطفالهم من وجودنا وتجنبونا فامتد حزننا.. اقتربنا منهم في غياب الكبار فتركوا لعبهم واحتموا بالدور.. اكتفينا بمراقبتهم خلسة.

لم تحتفظ ذاكرتي من أسماء ووجوه أخواتي البنات في الأسرة الأولى بغيرها.. نادرة.. وضاع باقي اسمها.

أذكر أمّنا تضرب نادرة وتشتم من خلّفتها كلّ صباح بينما تنظف فرشتها المبللة ثم تنشرها تحت الشمس.. ويحدث لكثير منا مثل نادرة.. نصحو فنتحسس بلل فراشنا فنخجل ونبكي خوفنا ثم نرفض مغادرته فيعرفون.. كلّما بلّلنا فراشنا ضربتنا أمّنا.. وكلّما ضربتنا خفنا أن يخدعنا نومنا فنبلّله أكثر، ندّعي المرض فلا يصدّقون.

كان يوماً بارداً مطره رذاذ ونادرة تبكي وترفض الفول.. لطشتها أمّنا ودسّت وجهها في الصحن وصاحت « اتْسمّمي» يعني أمك الـ.. استغفر

الله العظيم.. ستطعمك أحسن منه؟.. كادت نادرة تختنق.. نفضت رأسها ومسحت الفول عن وجهها بكمّها وهمست في خوف «لا أحبّه. لا أطيقه».

رفستها أمّنا ومضت.

بكت نادرة بصمت فاقتربْتُ منها.. أمسكْت يدها ومسحْتُ ما تبقى على وجهها من الفول بكم قميصي.

هل كان أزرق اللون؟

وأنا مثل نادرة أكره الفول فلم أقرب صحني.. تفاديت كفّ أمّنا فارتطم رأسي بالسرير. تحسّسْتُ كرة برزت على جبيني تكبر وتؤلمني فبدأت الصراخ. قالت أمّنا للمديرة إنني تعثرت وخبطت رأسي بالسرير فتعالى صراخي أكثر.

سألتني المديرة هل وقعْت يا سفيان؟.. وأمّنا تحملق بي وافقت بإيماءة وطال بكائي.

مسحْتُ سوائل وجهي بكم قميصي الأزرق.

نسينا بكاءنا مع حدث جديد.. دخل حارس الباب مع رجل قصير وسمين إلى غرفتنا ثم تركه الحارس ومضى.. فتح صندوق حديد صغيراً ووضعه على البلاط.. تابعنا ما يفعل.. أدهشنا صندوق يفتح من جانبيْه عن أدراج عديدة.. تحلّقنا حول الرجل.. انتقى من أدراجه أدوات غريبة، مسامير وشواكيش ومسطرة وأشياء لم نرها من قبل، ولم أعرف اسمها حتى ألحقونا بورشة النجارة، وبدأ يصلح سريراً مكسوراً وباب غرفة لا ينطبق.

من بدأ العبث بالصندوق ؟

كلنا تناوشنا أدواته.. قلّبناه ونثرنا ما فيه وما زال يعمل ويراقبنا.. ابتسم وردّنا بلطف.. جمع ما أخذنا وأكمل عمله فعاودنا الهجوم.. قطّب النجار ونهرنا بحزم!

بدأ يغضب.

نادى أمّنا فأبعدتنا ثم عاودنا هجومنا بإصرار أكبر.. جمع الرجل ما تناثر وما أخذناه ساخطا وعاد يعمل.. أعجبتنا لعبة أن نخطف ونضحك ونهرب ليلحق بنا.. غضب الرجل حتى احمرّ وجهه وأمرنا أن نعيد ما أخذْنا قال: صحيح أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال شيئا.. ابن الحرام يظل ابن حرام.

همست أمّنا بسخط: حرام عليك! بعضهم أيتام.. حتى هؤلاء ما ذنبهم؟!

لم أسأل يوم واقعة النجّار عن معنى « ابن الحرام»، والأطفال مثلي لم يسألوا. دلّتنا الغريزة على أنها مما يُخجل فصمتنا.

مما قاله النجّار وملاحظات غيرها لا تتوقف أدركنا اختلافنا، وأننا لسنا سواسية.. صنفنا الهمْس إلى يتيم ولقيط وأطفال شوارع.

كلنا كرهنا كلمة « يا حرام».

2

الحكمة تنادي في الخارج.. في الشوارع تعطي صوتها

من أمثال النبي سليمان

هي ليلةٌ لم تشبه غيرها.

ليلة خميس غيّرتنا فلم نعد نحن.

متوحّشة كأعشاب برّية نبتت أفكارنا..غرْسٌ شيطاني تمدّد في عقولنا واحتلها..عميقاً التف حول الدقائق والساعات فهزمها، وسْوس ضد الحيرة.. أكّد أن الراحة في المعرفة.. أن نميط أسرار وجودنا من أوراق في خزانة مدير «دار الرعاية» أو «المؤسّسة» الاسم الرسمي أو «ملجأ الأيتام» كما يسمّيه الناس.

في ليلة الجمعة يتسلّل المشرفون إلى بيوتهم.. يتركون الرقابة والدار للكبار منا.. يغلقون الأبواب بالمفاتيح وينصرفون، ومثلهم الحارس.. يترك نور غرفته مضاء فيعود متأخرا، وكثيرا ما يغيب حتى صباح السبت.

مثل قطط محبوسة نتعارك.. نخرمش ما نطال، يجوع الأولاد ويصرخون.. يقفزون من النوافذ إلى الملعب.. يتسلّل الكبار إلى غرف الصغار أو يجرّونهم إلى الحمّامات، فيعلو اللهاث وتخفت المقاومة بخوف أو رغبة.

بعد تفكير اتفقنا، نحن الخمسة، على التنفيذ في يوم خميس ليلة الجمعة.. فيها تنعدم الرقابة أو تكاد، وينشغل المشرفون والسائقون والحرّاس بعطلة نهاية الأسبوع ويتركون الدار قبل انتهاء الدوام.

ذاك الخميس تصرّفنا على غير طبيعتنا فانتقلت عدوى هدوئنا إلى الآخرين.. لم يستوقف العاملين غير المعهود من الأولاد.. أبدوا دهشتهم لكنّ أحدا لم يتوقف عند المسألة.

ذاك يوم لم نعترض فيه على شيء. أنجزنا ما طلبوه ثم تبرعنا بغيره.. حرَمَنا المشرف من المصروف ودسّه في جيبه فلم نثُر أو نحتج.. نظّفنا الدار والساحات، التهمنا طبخة المجدّرة للمرة الرابعة في أسبوع، ولم نلمّح إلى صناديق الدجاج المجمَّد حملناها إلى الثلاجات في الليلة السابقة، ولم نعلّق أو نصفر أو نهمهم بالسخرية وهم يخرجون بها.

مكافأة هدوئنا كانت أكبر مما توقعنا.. ترك أحد المناوبيْن الدار مع المساء.. وتسلّل الثاني إلى غرفة الصغار مبكّراً عن عادته وطال مكوثه، وغاب الحارس وترك نور غرفته مضاء.

نحن ومفتاح مقلّد لغرفة المدير ننتظر فرصة.

قلّد فراس مفتاح غرفة المدير في غفلة من مدرِّب الحدادة واللحام.. طبع المقاس على شمع منصهر.. اشترينا الشمع وعلبة كبريت بمصروفنا من دكان صغير في انشغال السائق والمشرفة بالتسوّق، وأخفاهما في ملابسه.

لأولاد الدار مصروف يومي يدّخره المشرفون في صناديق توفير صغيرة، عليها أسماؤنا.. قالوا هي « خميرة» نأخذها حين نغادر الدور لنبدأ بها حياتنا.

وأمر الصناديق غريب! كأنها بلا قعر! قلّبتها مرّات فلم أجد فيها ثقوباً.

استنكرنا ضياع حسابات التوفير فهاجت الإدارة وقمعت ثورتنا.. لوّح المشرف بعصاه وذكّرنا بأننا صرفنا نقودنا في مقصف المدرسة وعلى المسخرة، ولكننا بلا عقول ولا نعرف كيف نطرح أو نجمع.

أما أجورنا من التدريب والعمل في الورش فيختزلها المدربون أو يحرموننا منها بتهمٍ لا تنفع معها شفاعة.. إهمال. إتلاف أدوات الحدادة والنجارة، ثم استبدال ما يتعطّل أو ينكسر.. قلنا لكن الوزارة تعوض التالف فأخرسونا وعاقبونا.

قلنا لأنفسنا ربما كانت ذاكراتنا هي المشكلة فعلا.. خاصة مع الطعام والنقود، فتخربط وتنسى ما يرتبط بالأكل والمصروف، وبأجور عملنا في الورش، ولهذا يغضب المشرفون ويدشدشون أبداننا حين نطالب بها فسكتنا.

ظل العقاب الأشد في الدور لحيازة أحدهم سيجارة أو تدخينها.

وحصول الأولاد على السجائر سهل وميسور. بدأ صبيّ دكان قريب بتهريبها وبيعها بضعف ثمنها. مفرّق بالسيجارة أو بالباكيت، وأحيانا يشتركون في ثمن علبة حين يتوقف الباص في السوق يشترونها خلسة ويتقاسمونها، ولا أذكر متى بدأ سائق الدار والحارس ينافسان صبيّ الدكان على بيعها للأولاد وقبل أن يحتكرا تهريبها مقابل مصروفهم كلّه.

وأنا، سفيان حسن عبد الجبار لم أدخّن يوما، لكنّ مصروفي ضاع من صندوق توفير كتبوا عليه اسمي.

لا يقين عندي ولا تفسير لنأيي عن تصرفات كثيرة قام بها أترابي، كل ما أعرفه أنني منذ كسرنا خزانة المدير عزفت عن العبث معهم.. ألأني صدّقت ما أسمعه عن اختلافي؟ أم هي الأحلام سكنت لياليّ وسحبتني من الانتماء إلى المكان ومن فيه وشغلني البحث عن أيدٍ ألقتني في هوّة الملجأ ولم تعد لأخذي؟!

شاغلْنا مدرّس الحدادة في حصة التدريب بأخطاء متعمّدة، ترك أحدها أثراً في يدي ما زال.. مرّت زوجتي عليه بإصبعها في حنان يوم أخذت يدها بين كفيّ أول مرّة وتساءلت بدهشة.. قلت كنت أقطّع لحوم الشواء في حفل باربكيو مع أولاد عمّي في دبي!.. صدّقت وابتسمت لصورة الرخاء.

والمدرّس مشغول بنزيف يدي لمحت فراس ينسلُّ إلى ماكينة الخراطة في طرف المنجرة، ثم حجبه تدافع الأولاد.. طوّقوني مع الأستاذ وتعالت الجلبة.. بعضهم رثى لجرحي وسخر آخرون من جهلي، وتجاوز الباقي أدوارهم فقدّموا نصائح للأستاذ عن وقف النزيف بمسحوق القهوة.. تعجبت أين سمعوا الوصفة.

الثلاثة الباقون من فريقنا تمادوا في افتعال الضجيج فطغى الصراخ ومحاولات الأستاذ إسكاتنا على صوت الخراطة.. رأيت فراس يدسُّ المفتاح في جيبه فتوقفت عن الصياح وهدأت الجلبة.

ليال طويلة درسنا فيها الطريق لنتفادى الخطأ.

حالكة وباردة ليلة الخميس تلك فخمدت حركة الدار.. الأبواب والنوافذ مغلقة في غرف بلا تدفئة ومواقد غاز لا تشتعل.. يستبدل المشرفون القوارير المعبّأة بأخرى فارغة ويحملونها إلى بيوتهم.

تفرّقْنا حسب الخطة على أكواع الأدراج للمراقبة وفراس وأنا إلى غرفة المدير.

هدوء مريب يلفُّ الدار ويرعبنا.

على ضوء مصباح خافت يتركونه مضاء تحسّسنا خطونا.

تقدّمني فراس بعتلة صغيرة أخفاها في ملابسه فجرّح الحديد بعض صدره.. أطاع القفل مفتاحنا المقلّد بأسرع مما تصوّرنا فشهقنا وكتمنا صراخنا.. قفز فراس بفرحه في الهواء ورفع المفتاح ملوحا بنجاحه.. ملهوفيْن نسابق الحرقة إلى أقدارنا ركضنا إلى خزانة الأسرار.

حشر فراس العتلة بين دفتي الخزانة.. تماما عند القفل.. قاوم الحديد ثم استسلم للضغط والإصرار.

ملفات أولاد الدار مرتبة فوق رفوف الخزانة حسب فئات عمرية.. كلُ عمرٍ أسرة.. بدأت بسبع وانتهت بالثالثة عشرة.. حفظْتُ وضع ملفات أسرتنا قبل أن أسحبها.. أي خطأ في إعادتها سيكشف الفاعل وصاحب المصلحة في معرفة ما فيها.

شغلني فراس عن قراءة ملفات أولاد الدار كلهم كما انتويت.

مخيفٌ أن تجابه ما تجهل وما سطّره لك قدرك.. تعطّلت أصابعي.

رهيبٌ أن يصفعك سرّ وجودك إذ تميط لثامه، أن تكشف ما يداريه الآخرون عنك.. وحدهم في الدار يعرفون سرّك ويبيحون منه بإشارات وتلميحات فلا تملك حتى جرأة السؤال.

وصادمة هي الحقيقة كنور باهر بعد ظلمة يصيب العينين بعمى مؤقت.

حاول فراس سحب الملفات من يدي.. تمسَّكْت بها وكدْنا نشتبك.. نهرْتُه لئلا تتمزق فتوقف.. وفي تصاعد لهاثنا والانتظار سمعت وجيب قلبي.

في ملفٍ عليه اسمي:

سفيان حسن عبد الجبار- يتيم الأبوين.

شهق فرحي.. لم أولد من ريح ولم أنبت بعلاً.

وكلّ ما يلي محتمل ومقبول.

في ورقتي الأولى:

اسم الأب: حسن عبد الجبار

اسم الأم: آمنة محمود صالح

أحضره كافله، المدعو تيسير محمّد عبد الجبّار ابن عمّ والده، وأودعه الدار لظروف هجرته خارج البلاد.. تركه حتى تدبير إقامته في دبي، وإجراءات التحاق اليتيم بعائلته، ثم يعود لكفالته.

لم يترك عنوانا.. وعد بالاتصال وتحديد عنوانه حالما تستقر أمور عمله وإقامته.

ملاحظة: انقطعت صلة الرجل بالدار.. لم يعثر المشرف المكلّف بأمر من الوزارة بالبحث عنه في دبي على عنوانه أو وسيلة اتصال به.

بنفاذ صبر سحب فراس الملفات مني فوقعت وتناثرت على البلاط.. تجمّدْتُ بصوت ارتطامها.. خيّل إليّ أنه أيقظ من في الدار.. بعثرها فراس

ووجد أوراقه.. انحنيت أجمعها حين سمعت ملفّه يصطدم بالبلاط، وجسده يتهاوى على المقعد الجلدي فكاد يقع به.

أطفأت النور بخوفي.. توقف الزمان.

طال السكون ولم يظهر أحد.. أشعلت الضوء.. فراس على الكرسي جامد مشدوه سادر في البعيد لا ينبس.

مع السطر الأول من ملفّه خذلني النطق مثله.

يرفض العقل قبول الكوارث وإن تحسَّب لها.. يظل يناوشه الأمل ويرجح استبعاد أن يقع ما يخشى رغم احتماله.. يسحبه الرجاء فوق غمام التمني في ألا تتحقق الكارثة.. لنفسه أو لمن يحب.

لم يكن فراس يتيما كما يقولون ويعرف.

أنا وفراس والحيرة وصفير خافت يستحثنا.

بتركيز وعلى عجل قرأت ملفات أسرتنا وحفظت ما فيها ثم أعدتها بحرص إلى موضعها. سحبت فراس من يده.. كإنسان آلي تبعني وما زال ذاهلا غائبا وأغلقت الغرفة.. رميت نسخة المفتاح بأقصى ما أستطيع من وراء السور إلى الشارع الضيّق.

ساندت فراس حتى عنبر نومنا ولحق بنا الآخرون.

ليلة الخميس تلك قلبتْ حياتنا.. وُلد من رحمها أمل في أن أعثر على من تركني في الدار واختفى.. وألقت برفاقي في لجّة حيرتهم واليأس.

رغم الوعيد والعقاب لم تتوصّل الإدارة إلى من كسر خزانة المدير.

منذ بدأنا التخطيط لكشف ما نجهل أجمع الرفاق على تكليفي بقراءة الملفات، ثم أخبر كلاّ منهم، على حدة، بسرّ حياته.

قبْل كسر الخزانة صلّينا الأيام.. دعونا الله الرأفة بنا فلا يقدّر ميلادنا من رحم الغيب.

كلٌ منا خشي في قرارة نفسه ما واجهه فراس.. كلٌ تمنى أن لا يحمل عار من لا يعرف.. أن لا يكون ميلاده من ريح ذرّته على أرصفة الحياة ثم سكنت، ولا نبتا شيطانيا ألقى به الزارع والحامل إلى المجهول.

لم يدرك الرفاق فداحة ما طلبوه وإن حلّقت أنا بزهوي.. انتشيت بثقتهم وائتماني على أسرارهم.. لم أقدّر آنذاك هول أن أرزح بعبئها وحدي، ومغالبة البوح أثقل من كتمان السر، لم أدرك فداحة أن أنتصر على غواية الكلام وألجم الرغبة في إفشاء ما أعرف.

تضيق الصدور بأسرار كبيرة.. أكابد الكتمان وأتابع حيرة الأسئلة في عيون رفاقي.

لم ينم فراس في ليلتنا تلك، ومثله سائد.. أخرسنا هول حزنهما فلم نجرؤ على الاقتراب منها.

صمْت ثقيل خطف منا الليل وامتد.

يفرض الصمت حضوره الطاغي في الأهوال العظيمة.. تركنْا فراس وسائد لحزن أخرس الكلام.. وجه كلّ منهما إلى جدار، ورضينا بأقدارنا رغم القتامة فيها.. اليتم والتفكك الأسري أرحم من لقيط.

مخيف أن تكون «وحدك» قدر مرسوم لا رادّ له، لأن من تجهل حمّلك وزر خطيئته ومضى.. أبقى على حياتك دون أن يعرف أن وحدك والموت سيتعادلان في قادم أيّامك.

لم أبح بسرّ البنصر المقطوع في قدم فراس اليسرى.. سرّ لم يعرفه غيري من أولاد الدار وحتى غادرْتُها.. ولا أدري إن كان فراس قد أكمل قراءة ملفه وكشف سرّه؟ أم توقف عند «مجهول النسب»؟

لم أسأل ولم يقل، ولم يشر أحدنا إلى ملفه حتى غادرت الدار. والقصة المتداولة في كل دار انتقل إليها فراس، أن حجرا وقع على قدمه وهو يحبو فقطع بنصره.

في ملفه:

الاسم: فراس ابن المدعوّة مريم عبد الله صالح.. مجهول النسب
اسم الوالد - مجهول
اسم الوالدة: مريم عبد الله- مجهولة.
تاريخ دخول الدار: 1-6-1978

أحضرته الشرطة إلى الدار وعمره خمسة شهور.. وجده عمال النظافة في صندوق كرتون وعمره يومان قرب حاويات القمامة خلف سور مسجد عمر بن الخطاب.

علامات خاصة:

قضم جرذ أصبع رجله اليسرى قبل إنقاذه. كان ملفوفا ببطانية صغيرة ملوّنة عاريا ولا متعلّقات أخرى.. الحبل السرّي مقطوع ومربوط.. هولج من البرد والجفاف في حاضنة المستشفى الحكومي أربعة شهور ثم أدخل الدار.. لا علامات فارقة أخرى.

ينتظرون حكم أقدارهم قرفص الرفاق الثلاثة حول سريري، صامتين وخائفين.. هدأت نفوسهم وأدركوا أن ما في حكاياتهم أخفّ من شهقات فراس وهي تتناوب مع عويله.

ولم يكن سائد قد عرف ما ينتظره.

يعجز الكلام حين يكون أصغر من هول ما يعنيه. وحين لا تستوعب الحروف قسوة ما تحمل.

أراحتني ليلة الأسرار تلك ودمّرت أربعة آخرين.

سحبْتُ سائد خارج العنبر ففهم الرفاق.. لمعت في العتمة دموعه وسأل بلهفة:

- أمن إشارات؟

- رسالة من أمّك.

- هل أحضرتها؟

- سننكشف لو فعلت.

- لا يهمّني!

- أسطر قليلة مليئة بالحب.. تخاطبك «يا بنيّ» وتقسم أنها تحبّك أكثر من عمرها، لكنها خشيت من كشف سرّها لئلا يقتلونها فتعيش وحيدا بعدها.. ولم تجد غير أن تتركك مع من يعتني بك حتى تتدبّر أمرها.. وتؤكد لك أن لا رغبة لها في الحياة إلا من أجلك، وستعود لأخذك وتعترف بك وتجبر أباك على الاعتراف بك.. ستخبر عائلتها في الوقت المناسب. وتطلب صفحك عن زلّة حبّ مع من لا يستحق.

هذا ما كتَبَتْه أمّك.. قلت في ارتباك.

- إشارات أخرى؟

- كان عمرك يوماً واحداً وتنام في عربة صغيرة، ملفوفا ببطانية زرقاء جديدة، تركتك على باب الدار بعد الفجر، ومعك الرسالة وملابس غالية وقرآناً صغيراً من الذهب معلّقاً في رقبتك وبعض النقود. على الرسالة ملاحظة من الوزارة بأنهم لم يعثروا على أمّك من سجلاّت الولادة في جميع المستشفيات العامّة والخاصّة.

- لا بد أن أعود لأخذ رسالتي.. سأستدلّ على أمّي من خطّها.

- كيف وأين؟ أجننت؟.. صحت في جزع: كيف ستعرف خط أمّك؟هل تفحص خطوط نساء البلد؟ اعقل وإلا فضحتنا. ستأخذ نسخة من ملفك يوم تغادر الدار. هذا قدرك يا سائد.

كلٌ تكوم على سرّه.. لم ننم.

تلك الليلة شكرت الله فيها على نعمة اليُتم!

في أوراق عادل وغسّان:

الاسم: عادل عبد الرحمن سليمان- تفكّك أُسري
الأب: عبد الرحمن سليمان- مندوب مبيعات- لا عنوان
الأم: فوزية أسعد محفوظ - خيّاطة تعمل خارج البلاد- لا عنوان.

تركته الأمّ في محلّ سكنها المغلق بالمفتاح وحيدا وسافرت نكاية بزوج طلّقها واختفى.. أحضرته الشرطة بعد شكوى من السيدة صاحبة العقار المستأجر محلّ سكن الأم عن طفل وحيد محبوس لا يسأل عنه أحد.. عولج في المستشفى الحكومي من الجفاف وفقر الدم والأمراض الجلدية والفطريات والحشرات، ثم أدخل دار الرعاية.

* * *

الاسم: غسّان ظاهر أحمد - تفكّك أسري

الوالد: ظاهر أحمد حسين.. مقاول

الأم: وداد عبد الله شكري

لم أخبر غسّان بتفاصيل ما قرأت.. قلت: يشيرون إلى حادثة في الملفّ دون أن يشرحوا تفاصيلها، حادثة استوجبت إدخالك الدار... ثم تصنعت البراءة وسألت: عن أيّة حادثة يتكلّمون يا غسّان؟

أطرق واحمرّ وجهه ولم ينبس فأكملت.. مكتوب أنهم أدخلوك الدار بسبب انفصال والديك.

وافق بإيماءة وصمت.

كتبوا في أوراق غسّان:

أحيل إلى دار الرعاية بحكم صادر من المحكمة بعد إدانة المدّعى عليه صالح عبد الله شكري -خال الطفل- بحكم غيابي لهروبه خارج البلاد، بالسَجْن والغرامة لثبوت التهمة الموجّهة إليه في القضية المرفوعة عليه من والد الطفل، المدعو ظاهر أحمد حسين، بالتحرّش والاعتداء الجنسي على طفله غسّان ظاهر شكري عشر مرات -حسب ما جاء في اعتراف الطفل المجني عليه- في منزل الطفل أثناء غياب الأم وتركها لطفلها في رعايته.. أدخل دار الرعاية لعدم توفر بيئة صالحة لتربيته بعد طلاق والديه وزواجهما وغيابهما خارج البلاد، والعلاقة المنقطعة بين أسرتي أمّه وأبيه ورفضهما كفالته.

ملاحظة: أوصت المحكمة بعلاج الطفل غسّان ظاهر أحمد من الآثار النفسية المترتّبة على حادثة الاعتداء والنبذ، وبالتكتّم الشديد والحرص من

جانب المتعاملين والمشرفين عليه حول ما تعرّض له، ضمانا لسلامته النفسية والجسدية.

لكن غسّان تنقل بين فراش المشرفين والحرّاس في كل دار عاش فيها، وكثيراً لحق به بعض الأولاد إلى الحمّامات أو رافقوه إليها.

سألته لماذا يقبل ما يفعلونه به فصعقني جوابه: أحسّ بالأمان من ملامسة جسدي. أحبّ ما يفعلون.. أريد ما يفعلون وأنتظره.

ليلة نبش الأسرار انقلبت وبالا على كل من في الدار.

تعلّق السؤال بلا جواب.. من كسر خزانة المدير؟

أوقفونا عند السور بلا ماء ولا طعام والبرد قارس.. وجوهنا إلى الحائط، وناوشت بعض الركلات مؤخّراتنا فلم يعترف أحد.

صراخٌ وتهديد في غرفة المدير تناهى إلينا.. المشرفان والحارس ينكرون مغادرتهم الدار، أو سماع ما يريب في جوٍّ بارد وعاصف أصلاً، والمدير يهدِّد بتحقيق وفصل.

نادوا على اسمي فسابق الرعب خطوي لكني صمّمت ألا أعترف.

كظيمةٌ وجوه الجالسين.

متوددا قال المدير: سفيان! أعرف أنك لم تشارك في هذا، أنت مختلف عن الباقين.. وقام وطبطب على كتفي وطلب أن أتجسّس على الأولاد!

قلت لم نسمع شيئا لأننا نمنا مبكرا، وتساءلت في براءة: «هل أخذوا نقودا؟».

- أوراقاً رسمية.

كذب المدير.. أعدْتُ الأوراق والملفات مرتبة كأنها لم تمس، فعجزوا عن معرفة من قرأها، أو صاحب المصلحة في نبشها.

وعدْت أن أعود إليه إن سمعت أو عرفت شيئاً، وخرجْت تسابقني فرحتي وما زال المدير يؤكِّد اعتماده عليّ.

* * *

كثيرة هي الوجوه التي عشّشت في ذاكرتي من تلك الدور.

عاملة تفهّمت كوابيسي وصراخي ولامت الآخرين كلّما ضاقوا بي.. طوّقتني بذراعها وقرّبتني إلى صدرها فأحسسْت دفء حنانها.. مسَحَتْ خشونة كفها رأسي.. بسملتْ وقرأت قصار السور. قالت اقرأ المعوِّذات.. وتعوَّذ من الشيطان الرجيم قبل أن تنام، وأعطتني مصحفاً صغيراً وضعْتُه في وسادتي ليبعد وسوسة الشيطان وأضغاث الأحلام وأضافت: اسمع يا بنيّ.. تتحقق الأحلام إنْ تذكّرها صاحبها أو رواها لغيره، لهذا إذا كان منامك حلوا احكه للآخرين، أما الحلم «العاطل» فلا تذكره.. إنساه، أو أدخل الحمّام برجلك اليسرى، واروه بصوت مسموع كأنك تحكيه لشخص معك.. حينها سيذهب الحلم مع الخبائث.

كوابيس نومي انتصرت على وصفات امرأة طيّبة، وظل عطفها يهدهد حزني وأنا أفكّر بعمٍّ لم يترك لي عنوانه، ولم يعد لأخذي.

تهمس العاملة لأصبر: «ربنا كبير يا ولدي».

هل استطعْتُ النسيان؟ ما زال المصحف الصغير يجاور الصورة الوحيدة لأمّي. رسمْتُها على وجهي في صورة كبيرة لي.

في إصرار عمّي وسعاد على أنني طبق الأصل عن أمي أحببت صورتي.. وبدأت أتخيل وجه أمي فعجزت.. على نسخة كبيرة من صورة لي أسدلت شَعْرا ناعما طوقت به وجهي وحتى كتفيّ، مرتبا ومعتنى به مثل شعر سعاد، ولوّنت شفتيّ وخديّ وكحّلت عينيّ مثلها.

كانت أمّي صبيّة فاتنة.

أخفيت صورة لأمي في درج مكتبي، أرفعها فوقه إن كنت وحدي، وأطبق جفنيّ عليها لأغفو.

* * *

الذكريات أقوى من رغبة دفنها.. المؤلمة والجارحة وغير العادية تحفر ذاتها عميقا في الذاكرة، ثم تطلّ لتعلن وجودها.

كلّما انهمر ماء الدوش على جسدي رأيت حمزة.. يصرخ ويستر عورته وينفلت من يديّ المشرفة بينما تدعكه بالليف ورغوة الصابون تغطّي جسده الطفل..

تسابقنا نتعربش بنافذة الحمّام الصغيرة لنكشف سرّ حمزة فرآنا.. والعيون تبحلق لتعرف صرخ مذعوراً وأطبق بكفيه على ما بين فخذيه، وانفلت جسده العاري واستدار رافضا ما نفعل وبكى.. وقفت المشرفة أمامه وحجبته عن عيوننا.. نهرتنا ولعنت أباء من خلّفونا لقلة حيائنا.

وحده الاستعداد لحمّام حمزة فضح اختلاف صبي جديد في الدار.. وأشعل فضول الأولاد تحضيرات مريبة فثارت الأسئلة والتكهنات حول ما يميزه عنا، وكان لا بد لنا أن نعرف.

يستحمّ أولاد الدار مرّتين في الأسبوع.. السبت والأربعاء، وبلا خصوصية لأيٍّ منا.. نتكاسل عن الاستحمام. ننظّف أنفسنا في حمّامات مفتوحة وماء بارد.. نترك الصابون على جلودنا، لا نشطف رؤوسنا ولا نفرك شعورنا فلا يلتفت أحد، حتى ونحن نعبث ونلطش بالماء ونصرخ لا يهتم أحد منهم.

منذ وصل حمزة إلى الدار لم يستحم يوماً معنا.. دائماً وحده وفي غير أوقاتنا، ونحن نلعب أو نأكل، فأدركنا أن وراء الاختلاف سرّا يخفونه.. فهمنا هذا من همْس الاستعداد وعدم السماح لنا بالاقتراب ثم إغلاق باب الحمّام من الداخل.

هزمنا فضولنا.

ترهق الأسرار الأولاد في دور الرعاية.. لا العقول ولا قلوبنا تحتمل المزيد منها، فلم نصبر على حيرة سؤال صغير مثل حمّام حمزة بينما طنين السؤال يئز بلا انقطاع: لماذا نحن من دون البشر؟ من ألقى بنا واختفى؟

كشْفُ المستور في قضية حمزة تمَّ بارتجال كمعظم ما نفعل.. حمت المشرفة جسده بينما نتزاحم ونتعلّق بالنافذة الصغيرة، أخفتْ عريه بجسدها ثم وجَّهت الدوش نحونا فوصلنا رذاذ دافئ لم يردّنا.. صاح أحدهم «حمزة بدون حمامة!» .

نفرنا عن النافذة.. اختلطت ولولة المشرفة ببكاء حمزة وصراخ الاستهجان وضجيج ضحكنا.

جمعتنا المشرفة وقالت: حرام عليكم يكفيه همّه.. هكذا خلقه الله.. هل نعترض على حكم ربّ العالمين؟ بعدين.. من يعترض على حكم الخالق يأتي طير أسود ضخم ويخطف « حوائجه» وهو نائم ويجعله مثله.

سخر الكبار ونام الصغار وأكفُهم تغطّي عوراتهم لئلا تتناوشها طيور جارحة.

تردد حمزة في دخول الملعب صباح اليوم التالي، كسيرا وقف على حافته فتقاطبنا إليه، أكفنا تحبس الضحك ونقاوم فضولنا.. تحلّقنا حوله.. أمره أحدهم أن يرينا ما بين فخذيه فبكى حمزة وأطبق براحتيه على أعلى فخذيه.. هاجمه الأولاد فأنزلوا سرواله.. علا ضجيج رفضه وصراخ الضحك وشقاوة الإصرار ولؤم الدهشة.

نقلوا حمزة إلى حيث لا نعلم.. همست مشرفة لأخرى في أسىً: أولاد الحرام بهدلوا المسكين فخاطبنا الوزارة لنقله! حرام.. يكفيه ظلمها.. من يصدِّق أنها أمّه! طيِّب، خدّرت زوجها وقطعت عضوه لأنه اغتصبها ليجبرها على الزواج منه وهي لا تطيقه وتحب غيره، وظل يعاشرها غصبا فانتقمت منه.. أما أن تقطع عضو ابنها ؟ كيف طاوعها قلبها حتى ولو أنجبته من اغتصابها؟ يقولون صرخت في وجه القاضي: حتى لا يعيد فعلة أبيه.. والله هذه أم مجرمة!.. قالوا بل مجنونة، وبعد كم سنة خرجت من الحبس بعفو عام ولم تسأل عن ابنها أبدا.

رغم إصراري وإكرامي له لم يعثر موظّف الأرشيف على أوراق حمزة في الملفات.. ضاع أثر حمزة، فأين طوَّحت به حياته؟

تسطع قصة حمزة تنتهك لحظات سعادتي وتترصّد فرحي وأنا أداعب زوجتي، أو أنتهي من عناق الرغبة وأرتخي بجانبها يقفز حمزة من غياهب الماضي.

ذكرى حمزة دفعتني للبحث عن تاريخ الخصي والخصيان فأدهشني أن الرجولة ارتبطت في موروث الحضارات المتوسطية بالعضو الجنسي لا بعقل أو فكر.

في سفر التثنية من العهد القديم حُرّم على المخصي الدخول في جماعة الرب دون ذنب.. ومارست مملكة سومر الخصي لأهداف الخدمة في قصورها والاختلاط بحريمها، وأزعجت سطوة الذكورة امرأة ملكة آشورية هي، «سيراميس» أو سيرامات أو سميراميس، وتعني الحمامة.. تقول الأساطير ربتها الحمامات في الصحراء وتغنت بجمالها الخلاب وقدرتها العسكرية وبنائها المدن والجسور.. تزوجت ثلاثة رجال أحدهم ملك.. لكنها خصت الرجال لحروبها وبناء آثارها .. ولم تبحث الأساطير عن دافع شخصي لفعلتها، أو ربما تجربة جرّحت روح امرأة فاتنة لفظتها أمها لتربيها الحمائم ثم باعها البدو في سوق النخاسة قبل أن تصير ملكة.. حلقة مفقودة في سيرة امرأة انتقمت من رجولة الذكور فأمرت بقطع أعضائهم.. امرأة عاشت بين نهرين عظيمين وبنت حضارة متقدمة انتقمت من ذكورة من حكمتهم... فأي دافع زلزل روحها أضاعه التاريخ وأسقطته الأسطورة؟

الإغريق والرومان مارسوا الخصي وامتلكوا الخصيان.. اجتثوا ذكورة الغلمان ونصبوهم حرّاسا على عفاف حريمهم يراقبون لهم نساءهم من زلل جنسي ولا خوف من مخصيٍّ على عفاف امرأة.

وفي وقتٍ اخترع فيه رجال أوروبا حزام العفة يغلقون به أعضاء زوجاتهم خشية من رغبات النساء في طول غيابهم، وحملوا مفاتيح العفة المفروضة إلى حروبهم وصراعاتهم، قطع الشرق أعضاء الذكور ليختلطوا

بحريمهم ولا خوف عليهنّ. واشتطّ عسف القادرين فاتخذوهم غلمانا يقضون معهم وطراً.

تحريم الإسلام للخصي قيّد العثمانيين فالتفت خلافتهم على أحكامه، فلا نص يحرّم استخدام الخصيان الجاهزين.. وظّفوا النصارى في بلدان حكموها لخصي أطفال يخطفهم تجار البشر، من الحبشة وجنوب السودان فعجّت قصور الخلفاء والقادة والمماليك والأثرياء بالخصيان والجواري، وازدهرت تجارة رقيق الأطفال في تركيا ودولٍ احتلّوها كمصر والبلقان، ونشط قراصنة اللحم البشري فخطفوا طفولة إفريقيا وأوروبا الشرقية، خصوهم وتداولوهم في أسواق النخاسة.

الأتراك أمعنوا في التمييز بين خصيانهم باللون والعرق فجعلوا السود منهم حراسا للحرملك، مهمتهم التجسّس على الحريم والوشاية بهن، وعيّنوا الشقر خدما ومستشارين في سلاملك الرجال، وقد ارتقى بعضهم إلى مناصب كبيرة في الدولة، لكن بعضهم انتهوا غلمانا في متع محرّمة في مخادع أسيادهم.

* * *

وجوه أخرى من الدور لم تبارح الذاكرة جرحتني معرفتها وتركت أثرا لم يندمل.

وصلوا دار الرعاية في يوم واحد فانقلبت حياتنا.. يحيى وأخوه ربحي ومعتز ويونس. معرفتهم كادت تدمّرني.. عميقا في النفس حفرتْ لمحربتي معهم، وفتحت عينيّ على حياة خارج الأسوار أشدّ سواداً، وزادت إصراري على الوصول إلى عمّي تيسير.

تجمهر أولاد الدار لحدث غريب.

توقف جيب عسكري عند الباب.. الضابط يلوّح بعصاه ويهدّد صبيانا داخل السيارة ويأمرهم بالنزول.. تردّدوا ثم هرولوا.. وحده بينهم ثابت فبهرنا.. احتمل الضرب في تحدّ سافر.. لم يركض والعصا تلاحقه فأذهلنا صموده.

وقفنا على باب غرفة المدير بينما الشرطي يسلّمه أوراقهم والأولاد يقيسون المكان باستنكارٍ ورفْض.. ظلّ الفتى أكثرهم تحدِّيا وتمرّدا.. يتململ كأنما يفكّر بالهرب.. راقبه الشرطي بحذر وردّته عصاه مرّات، فرمق تجمهرنا بتعالٍ وازدراء أكبر.

المدير والشرطيّ يتهامسان فغلبنا فضولنا.. زحفنا حتى وسط الغرفة لنسمع فردّنا المدير.. تراجعنا خطوات وعاودْنا التقدّم.. توارى بعضنا بالجدران وركضْتُ مع آخريْن إلى نافذة المدير من جهة الحديقة.. حشونا رؤوسنا بين قضبانها حين ارتفع نقاش الرجلين.

من جمل تناثرت عرفنا أنهم من «أطفال الشوارع».. هذا ما وصفهم به المدير وهو يرفض قبولهم ويؤكد أنهم سيهدمون ما بناه في تهذيب أولاد الدار وتربيتهم.

ردّ العسكري بحزم أن دخولهم إلى الدار قانون يسري على المدير وعلى غيره، حتى لو أحرقوا الدار ومن فيها وصاح:

- يا سيدي واجبك أن تربّيهم أنت والمشرفون معك.. حلّلوا رواتبكم يا ناس.. ألا تتقاضونها لتهذيبهم؟

متبرِّماً وقع المدير ورقة باستلامهم.

الأولاد الأربعة مثلنا يطاردون الثانية عشرة.

في ركن الملعب القصيّ انزوا يتناقشون، وغير خافية سطوة الفتى عليهم.. واصلنا لعب الكرة.. نركض ونصرخ ونراقبهم خلسة.

تنبّه المشرف ففرّقتهم عصاه.

عرفنا اسمه قبل الآخرين.. يحيى.. مختلف عن رفاقه وعن أولاد الدار.. له كاريزما قائد.. وللقيادة صفات القرار والاعتداد والمبادرة والتميّز والقبول.. سيطر علينا منذ يومه الأول، ورغم خشونة وفجاجة ألفاظه تسابقنا للتودّد إليه فأذهلتنا معرفته وألفاظه السوقية.

كسَر تمرّد يحيى خنوع الملاجئ في نفوسنا.

حلقة المعجبين بيحيى كبرت كلّ يوم.. نتجمهر عند الطرف القصيّ من ملعب الدار، نجلس على الأرض حوله فيحدّثنا بأسلوب مدهش عن عالم لا نعرف.. كمعلّم يروي حكايات من دنيا تفصلنا عنها الأوامر وتحجبها الأسوار.

قصص يحيى أكثر تشويقا من حكايات نساء أنيقات يأتين الدار مرّة في العام أو اثنتيْن.. في أعياد الله والأعياد الوطنية يوزّعن أكياس الملبّس والبالونات والثياب فيفرح الصغار ويغتمّ الكبار.. تقرأ إحداهن قصصاً عن علاء الدين ومصباحه السحري، أو الأميرة ذات الهمّة وليلى والذئب. وفي لحظات نادرة تقبّل إحداهن صغيراً، ويلتقطن الصور التذكارية.

تنبت من زيارة القادرات والمحسنين أشجار الألم.. تعربش في قلوبنا.. تغلق الوعي وتفجّر أسئلة الوجود والاختلاف.

بتنا أولاد الدار نكره رؤية المحسنين، ونحقد على نظرات العطف في عيون ترثي ظروفنا وحياتنا، ونكره عطايا القادرين.

في كلّ عيد نأمل ونحلم وننتظر وجوها لا نعرف رمتنا واختفت، لعل العيد يأتي بها، تدقّ باب الدار وتبحث عنا.

مضت أعيادنا ولم يأت أحد.

في كل ليلة قدْر انتشرنا في ملعب الدار تطوّقنا أدعية وصلوات تتعالى من مكبّرات الصوت في الجوامع.. ننتظر أن تفتح السماء بابها في ليلة هي خير من ألف شهر.. رفعنا أكفنا وناجينا السماء أن ترسل من لا نعرف، تهديه إلينا بغريزة الدم الذي لا يصير ميّة، وتدلّه على طفل تركه يوماً ومضى.

هلّت ليالي القدْر وغابت ولم يدقّ باب الدار أحد.

يحيى كسر رتابة الحياة بحكايات رواها فشحذ همنا ودفعنا إلى غير المتوقع منا.

قبْل يحيى كنا نقضي الشتاء في الغرف الباردة، نتآكل بأسئلة القهر حتى البكاء.. ونلعب الكرة في الصيف ونرسم دورا ووجوها نتخيلها، وحين نعجز عن تصورها نبكي.

كتبنا يوماً على أرض الملعب بأكبر حروف نستطيع «لماذا؟» ورسمنا خلفها علامة استفهام كبيرة مثلها.

احتلّ سؤالنا إلى الله نصف ملعبنا.

كأن السماء لم تقرأ فلم تجب.

مرّة أو اثنتين صحبنا المشرفون إلى مدينة الملاهي.. سكبْنا قهرنا على الآلات والألعاب، فضجّ الزوّار بعبث أطفال لم يعرفوا التربية.

صاح سائق الدار: أولاد المؤسّسة إلى الباص، فوددت لو أُطبق على عنقه حين كشف اختلافنا على الملأ لكني انكتمت.. تبادل الزوّار نظرات استهجان وتوجّس وسحبوا أبناءهم يحمونهم منا.

قرَّرت أن أتجاهل نداء السائق كأنه لا يعنيني، أخجلني أن يعرف الزوار أنني ابن مؤسسة إن استجبت فورا.. وقاومت شعورا جارفاً بأن أصرخ بأعلى صوتي بأنني يتيم.. لي أب وأم وأهل لكنهم ماتوا.

لاحقتني عيون أمّهات وآباء تتوجّس وتتساءل إن كنت منهم فأنا ألعب وحدي؟ تجاهلت نداء مكبِّر الصوت لأبناء المؤسّسة ثانيا وثالثا فلم استجب أو أتحرّك.. احتار الزوار حولي في وضع يافع وحيد وظلّوا حذرين.. فقط حين سحبني السائق عن المرجوحة عنوة، وضربني بالشلّوت وشتم من خلّفوني فركضت أمامه، تبادلوا نظرات تؤكد ذكاءهم في تمييز وضعي، وتمسّكوا بأبنائهم أكثر.

يحيى يعرف الكثير عن العالم خارج الدار.. أكبر وأبعد من جولات باص ينقلنا إلى مدرسة ويعود بنا منها.

باندفاع غرير تصوّرنا متعة الخروج إلى حضن عالم تحجبه الأسوار رسمناه من حكايات يحيى رحيباً مثيراً.

هربنا من الدار.

وجدوا خرطوم الري بين أغصان الشجرة العتيقة فقطعوها.

الهروب بالخرطوم من على شجرة فكرة يحيى.. لسنوات ظلّت تلك الصنوبرة أمامنا.. كبرنا وهي هناك.. تجاوزت أغصانها ارتفاع السور فلم تثر ريبة مسؤولي الدار، ومثلها خرطوم الريّ.. لم يغوِنا أي منهما بالهرب.. بل قبل يحيى لم نفكّر بالهرب.

وحده يحيى جعل الشجرة والخرطوم طريقا إلى عالم قال إنه أحنّ علينا من الدار.. فيه طعام وسينما وأسواق، ونقود في أيدينا لن تنقطع..فقط علينا أن نقنع الناس الطيّبين ليعطوا، وضحكنا كثيراً مع قاموس شتائمه السريّة لمن يبخل أو يجود بقليل.

لم نتصوّر قبل يحيى أن الحياة مغامرة، أما بعده فضقنا بحياتنا حتى الفرار منها.

نحن صدَّقنا يحيى حتى اندفاع التجربة.

حكايات يحيى أرواح هائمة خطفتنا.. جوارح انقضَّت على ليالينا وحلَّقت بها.. نسمات حرّية لم نجرّب طعمها.

تنادينا حكمةٌ تفترش الأرصفة، وتجارب تصقل النفوس.

قال لنا إن الشارع يعلّم أكثر من المدارس، والشوارع أكثر رأفة بالأولاد من أهل يُرمونهم في دور الأيتام، فبهرتْنا حرّية بلا قيود ولا أسوار، وبشر يتساقط عطفهم مع النقود في أكفٍّ أطفال يستجدون.

كثيراً فكّرت في سطوة يحيى علينا.

دسّ يديه في جيبيْ بنطلونه واتكأ على السور.. كان قد استلم مصروف يومه الأول.. بصق بازدراء وقال: إخْصْ! مكسب نصف ساعة

على الإشارات أكثر من مصروف شهر هنا.. لن أبقى ولو قيّدوني.. برّة أنا حرّ وحاكم نفسي.. وأخرج من صدر قميصه سيجارة وعلبة كبريت وأشعلها.

ليس في دار الرعاية ما رضي عنه يحيى.. منذ وصل رفض وسخر من كلّ شيء، طعامنا وسطوة المشرفين وملابسنا وأوامر الدار وخنوعنا.

بلا شطئان بحور الأسى أغرقنا فيها يحيى.

نام المشرفون فتسلّلنا إليه وأحطنا بسريره.

كمعلّم حكيم وصف لنا عالماً غريباً.. أسواق ومطاعم يدخل ويخرج منها الناس فيهرول «الفاليه» ليحضر لهم سياراتهم، يفتح لهم أبوابها بينما يحيى يمسح زجاجها النظيف. ضربتين على الماشي بخرقة جلدية فيدسّ صاحبها النقود في يده.. أما لو كان شابا ومعه صبيّة، حبّيبة يعني، فلن يبخل الشاب ليبهرها.. وعمّال مطاعم طيّبون يلفون له بقايا الصحون.. أطعمة شهية لا يعرف اسمها.. ثم يرتاد السينما ويتجوّل في الأسواق.

دون أن يسأله أحد حدّثنا يحيى عن عائلته.. ونحن لا نسأل قادما جديدا عن أسرته كأننا نخشى الأجوبة.. لا أحد منا سأل يحيى شيئاً، وحده يختار ما يقول فنسمع لأنه يعرف أكثر.. عركته الشوارع.. يتحدَّث فننصت مأخوذين.. لكنَّ يحيى، وهو يدخّن سيجارته تحت شجرة الصنوبر، بينما نراقب له المشرفين، حدّثنا عن أهله كمن يزيح حملاً ثقيلاً.

قال: والدي سبب المصائب.. طلّق أمّي وتزوّج.. بلا سبب طلّقها.. تركنا ودار على حلّ شعره.. والدي سائق في مستشفى.. أحبّ عاملة معه وتزوّجها ولم يسأل عنا.. لم يكن أمام أمّي غير أن تتزوّج.. يعني تتزوّج أو

تبيع حالها؟ هكذا قالت يوم عاتبتها.. كانت تبكي حين نذهب إليها فيطردنا زوجها ويمنعها من أن تعطينا ولو كسرة خبز.. سمعناه يصفعها ويصرخ أنه تزوج واحدة لا ثلاثة، والشرط نور.. اشترط وقبِلَت أنْ لا علاقة له أو لها بنا.. وهو ليس من خلّفنا ورمانا، والبغل الذي أنجبنا أولى برعايتنا.. نحن والليل وحيرتنا لا نعرف اين نذهب نمنا على عتبة دارها فخافت أن تفتح الباب.. سمعناه يحلف إن دخلنا فهي طالق بالثلاثة.. بكت أمّي وبكينا من وراء الباب مثلها.. ذهبنا إلى أبي.. رفضت زوجته أن تفتح الباب.. قالت أبوكم ليس هنا.. انتظرناه عند العتبة فحلّ الظلام.. وصل فتركنا خارجا وعلا صياحه، هدّدت بأن تخرج ولا تعود لو تجاوزنا العتبة.. قالت إنه كذب عليها لتقبل به.. ادّعى أنه عازب ولم يسبق له الزواج.. ولن تقبل ان يظهر له ولدان في غفلة منها.. وهي مساعدة ممرضة لا خدّامة، ومن خلّفتنا أولى بخدمتنا.

يتعاركان وأنا وربحي بدون زاد أو ماء اليوم بطوله.. خرج والدي مهزوما فجرّنا من أيدينا.. قلنا سنموت من الجوع وبكينا.. أخذنا إلى بيت عمّي وقال: لن أخرب بيتي لأن بنت الكلب تزوجت نكاية بي وألقتها في وجهي، والجديدة ستترك الدار لو أخذتها.. تصرّف، وتركنا عنده.. عمّي رجل طيب ومثله امرأته، لكنه صاحب عائلة ودخله بسيط.. قدّم لنا شايا مع خبز حاف وحبات زيتون.. مع الفجر أخذنا إلى وزارة الشؤون الاجتماعية فحوّلتنا إلى دار الرعاية أول مرة... قالوا كلّهم إن وجودنا في الملجأ لمصلحتنا لأننا نأكل ونشرب وننام ونتعلّم في المدارس على حساب الحكومة، وأحسن من أولادهم.. رمونا في الدار.. ومن يومها لم يسأل عنا ابن ساقطة منهم.

سيل شتائمه أغرق والديْه والدنيا.. لم توقفه شهقات ضحكنا ولا بحلقة الدهشة وأكمل: أتعرفون.. أكره أمّي وأبي وزوجها وزوجته والعالم كله!. وأكره الشرطة أكثر منهم.. هربنا من دار الرعاية الأولى، عشنا في الشوارع أكثر من سنتيْن.. نشروا جواسيسهم وشدّدوا الرقابة، ولولا السفلة وإخبارياتهم لم نقع.. لكن.. لن أبقى.

هزمنا عُلوُّ الأسوار فقهرته خبرة يحيى.

يحيى فكّر وخطّط ونفذنا معه.

لم يعرف البستاني العجوز أنه وسيلة خلاصنا.. يأتي عصر الأربعاء من كل أسبوع، ينظّف ويقلّم ويغرس، ثم يعلّق أدواته في غرفة صغيرة تحت درج خارجي.

يحيى سرق مفتاح الباب في غفلة منه.. سحبه من القفل في لمح البصر.

حلّ المساء وما زال العجوز يفتش عن مفتاحه.. تحت الشجر وفي العشب وقرب صنابير الماء.. قلّب كفيه وضرب على رأسه واحتار في اختفاء مفتاح لا يحتاجه غيره. تردّد طويلا ثم توكّل على الله وأغلق الباب بأن ثبّته بعصا ومضى.

والدار تغرق في نومها والهدوء تسللنا من نافذة المطبخ.

برشاقة قرد تسلّق يحيى شجرة الصنوبر وربط الخرطوم حول جذعها ثم انزلق عليه بمهارة.. اختفى.. تبعه أخوه ربحي بحماس أقلّ وما زلنا نرتعش بتردُّدنا.

بصفير خافت استحثنا يحيى.. واللحظات دهر.. ابتعد الصفير ثم توقف.. اندفعنا إلى الخرطوم وإغواء عالم نحتاج يحيى لاقتحامه.

الهبوط بخرطوم مربوط بجذع شجرة مخيف حين تفكّر في ارتفاع السور.. لعلّه عشرة أمتار وربما أقل.. تناثر قلبي وتسمرت على السور بخوفي وخذلتني إرادتي.. سبقني الرفاق كلُّهم وبقيت بين الأغصان هائباً متردِّداً.

عاد يحيى.. وقف تحت السور وقال لن ننتظر حتى ننفضح.. إما أن تنزل أو تنام على الشجرة.. وضحك وابتعد.

انزلق خوفي على الخرطوم فإذا هو أسهل مما تصوَّرت.

تلقفتني سخرية الرفاق وتعليقاتهم فحبست دمعي.. قالوا جبان.. تحرّكت مثل الدّب.. سأقضي الليلة متردّدا فوق الشجرة.

كنصل حاد أدمتني سخرية يحيى حين تساءل وما زلنا نركض: هل شاهدتم فيلما قديما اسمه «أبي فوق الشجرة»؟ الليلة تفرّجنا على «سفيان فوق الشجرة» فضجّوا بالضحك أكثر.

جرّحتني سخريتهم لكنّ أحدا منا لم يقل ليحيى إننا لم ندخل إلى السينما أبدا.

ضحكنا الطريق طوله.. بخوفنا ورهبة المغامرة وإثارة ما نجهل.

ابتعدنا فهدأ اضطرابنا.. وضعتني تعليقات الرفاق أمام نفسي.. كرهت أن يراني الآخرون متردّداً فأسرعْت خطوي لأتقدّم.. لحق بي يحيى وتصرّف كرجل وأنا غرير، أحاط كتفيّ بذراعه ونصحني بلهجة متعالية:

- الحياة يا سفيان مغامرة لا تحتاج العقل ولا طول التردّد، ولا العلم أو قراءة الكتب.. الحياة في الشوارع، والحياة غول، إن لم تأكله أكلك.. وتدوسك الأقدام إن تخاذلت.. الحياة لأمثالنا مغامرة لا ينجح فيها إلا

قلب جامد.. قلب حديد.. لا يسمح لغيلان العالم بالتهامه، فتحرَّك واركض لتكتشف العالم وتأخذ حظك منه غصبا عن أولاد الساقطة، من الأهل ومن مشرفي الدور لأننا حين نكبر سيطردوننا.. فلماذا ننتظر؟ نخرج بإرادتنا ونأخذ حظنا منهم ومن الحياة غصبا.. البقاء في الملاجئ يعني الموت لا الحياة.

ليتني لم أعرف يحيى.

دخلنا منطقة صناعية منعزلة سكونها مخيف.. قادنا يحيى في دروب بدا أنه يعرفها. نسحب أقدامنا من تعبنا فيغالبنا.. تلوَّن بياض عيون الرفاق بالأرجوان.. أطفأ الخوف والنعاس بريقها.. نبحَتْ كلاب الطرق فاحتمينا ببعضنا وهربنا.. تمهّلت سيّارات.. راقبتنا في شكّ ثم انطلقت.. تدارينا بمدخل عمارة رثّة من دوريّة تجوب الشوارع.. قال يحيى إنهم يطاردون أولاد الليل، لكننا سنقضي الليلة في مصنع يعرفه.

من نافذة خلفية صغيرة غير محكمة الإغلاق قاومت محاولات فتحها ثم استسلمت تسلّلنا.. تفادينا الارتطام بأخشاب ولفائف إسفنج وتحسّسنا طريقنا على نور قمر لم أنتبه إلى أنه بدر.. اعتادت عيوننا الظلام.. رائحة الخشب وغبار النشارة والآغو اللاصق نفاذة في أرجاء المكان فهاجمني سعال لم يتوقف.. سدّ يحيى فمي بكفه ودفعني نحو النافذة فتهالكت فوق ألواح خشب وجاهدت لهواءٍ نظيف.

روائح المكان تسْتلّ روحي.

بعد سنوات يوم شخّص الطبيب ما أعانيه ب «حساسية شديدة وضعف في الرئتين».. تذكّرت سعال ليلتي تلك.

يحيى يعرف المنجرة.. كل ركن فيها.. فرد قطع إسفنج كبيرة فارتمينا فوقها.. وحجب نافذة المصنع بلوح خشبي، وحشا حوافّ الباب بقطع إسفنج صغيرة ثم أشعل النور قال: الضوء سيأتي بالشرطة وغيرهم.

المنجرة فسيحة لصناعة الأثاث الفاخر، خزائن وطاولات وأسرّة لم تكتمل.. علب آغو وفرنيش مفتوحة، وجهاز لرش الدهان قرب خزانة مغلقة بلا قفل.. انتقى منها يحيى علبا كثيرة فاحت منها رائحة الآغو والثِنَر والفرنيش نفاذة حين فتحها.. حشا عدة أكياس بلاستيك صغيرة داخل بعضها.. ثلاثة أو أربعة وما زلنا نتابعه في فضول.. صارت كيساً مقوّى.. سكب فيه الثينر والآغو وخلطهما.. فاحت رائحة المزيج أقوى بكثير مما خبرنا في منجرة الدار.. جمع يحيى عنق الكيس بقبضة ثابتة وناوله لأخيه فأحكم قبضته عليه.. أعدّ كيسا ثانيا وما زلنا نتابع صامتين، وبلهفة دسّ يحيى أنفه في فتحة الكيس واستنشق بقوة وعمق.. مرّات.

صار يحيى آخر.

استلقى على قفاه وضحك.. روى نكات جريئة صاخبة.. لطّش من حوله.. حكّ رأسه بأجساد الآخرين وتمسّح بهم وما زلنا لا نعرف ما علينا فعله.. التصق بهم ورمى رأسه على صدورهم، وعاود الغوص في كيسه، ويستنشق بعمق.. ولهفة.

بتوجّس التجربة الأولى تنقل الكيس الثاني بين الأولاد فقلّدوا يحيى.

الرائحة أهاجت سعالي فتواصل.. سحبني الرفاق إلى طرف المصنع فتهالكْتُ على لوح إسفنجي صغير، أجاهد لنفسٍ فتكتمه الرائحة.

أحسست الدوار والخدر يسحبان وعيي.

كأنني نمت.

أيقظنا صوت المفتاح وصرير الحديد.. الأجساد متناثرة فوق قطع إسفنج، ورائحة الثنر والآغو تتمسّك بالمكان.

- ولَهْ يحيى فِزْ! يخرب بيت أبوك، جايب لي كتيبة... رفس يحيى بقدمه وضحك وتفحّص وجوهنا.

- أهلا معلّم.. ردّ يحيى... كلّهم على المنشار.

المعلّم طويل القامة مستدير الوجه في الأربعين، أكثر أناقة من عامل مصنع.

حديث يحيى وتعامله مع المعلم أثار دهشتنا واستفزّ حاستي الخفيّة.. يحيى لا يخشاه بشكل مستهجن! بل وتعمد أن يتطاول عليه مرات..علاقة غريبة بينهما.. لا خوف فيها ولا احترام.. ليست مما بين معلّم وصبيّ.

أثارت الندّية ريبتي ولم استطع تفسيرها.

رفس المعلم الأكياس الفارغة بقدمه وقال: الله يخرب بيتك يا يحيى من أول ليلة؟!. وضحكا معا.

بعد سنوات طويلة وأنا أتابع فيلماً وثائقيا في التلفزيون عن الإدمان فهمت ما فعله يحيى.

- هل يعرفون المطلوب؟.. سأل المعلم يحيى وابتسم.

- لم أبدأ تدريبهم بعد... وهزّ كتفيه في غير اكتراث.

في المصنع مرحاض صغير وأنبوب بلاستيك معلّق في صنبور للتشطيف.. نظّفنا المصنع، رتبنا الأخشاب، خرطنا أرجل الكراسي، أكملنا

طلاء الطاولات ورفعنا الطلبيّة الجاهزة في سيّارة نقل صغيرة، والمعلّم يحثنا على العمل أكثر.

كلُّ ما تناولناه كان الخبز والسردين وكثيرا من الشاي، وقبض يحيى أجرة عملنا.. لم نسأله عن مقدارها ولم يقل.

في ليلة بدت بلا نهار تقلّبنا بخيبة الأمل.. دار كيس الآغو على الرفاق فأطاح باحتمالهم.. ضحكوا وتعابثوا وضجّوا وتساقطوا فوق الإسفنج، وما زال السعال يناوش رئتي.

يومنا الثاني في المصنع انتهى أفضل.

مع الظهر أطلق المعلّم سراحنا.. جمعنا يحيى وبدأ تدريبنا قال: نسرح في الثالثة عصراً، وحدّد لكلٍ منطقته ثم زمان ومكان لقائنا حين ننتهي.

حذرنا يحيى: شوفوا.. المقتل في عملنا الثاني هم الشرطة.. تدارى أو اهرب إذا رأيت أحدهم أو لمحت سياراتهم أو سمعت زامورها.. أمّا إن لاحقك شرطي فادخل إلى اقرب باب مفتوح، أيّ باب.. متجر، بيت، عمارة، بنك. كراج وتصرّف في الداخل بهدوء كأنك لا تكترث بالشرطي أو حتى تراه.. إيّاك أن تلتفت نحوه أو تبحث عنه بعينيك.. الخوف سيكشفك.. تصرّف بثقة كأنك زبون أو ساكن أو مالك لا يعنيه وجوده.

صمت يحيى وأضاف: نحن أخوة على الحلوة والمرّة صحيح، لكن عند الشرطة كلّ واحد معلّق من عرقوبه، ويمسح الآخرين من دماغه وينسى أسماءهم مهما فعلوا به.

تساقطت أيدينا فوق راحة يده المفتوحة.. قال وردّدنا عهدا بأن لا نخون بعضنا مهما حدث.. وفي دهشتنا أخرج يحيى إبرة وخز بها أكفنا

فاختلطت دماؤنا.. كانت المرة الأولى التي أسمع فيها عن أخوّة الدم أو ميثاق الشرف بالدم.

وزّع يحيى علينا صناديق صغيرة فيها علكة.. لاصق للجروح.. محارم ورقية صغيرة، وأتبعها بنصيحة أخيرة: السيدات أكثر عطفاً، وكلّ المطلوب دعاء وسحنة بائسة.

انتشرنا عند إشارات المرور الرئيسية.

في مساء رائق لم يعكّره ظهور الشرطة كنت الخائب الوحيد.. باع الرفاق ما معهم وعدت ومعي علبتان من لاصق طبّي.. تردّد شابان في سيّارة مكشوفة فبدأت ألح بالدعاء بنجاح المقاصد، وأن يبارك الله في شبابهما فابتسما ودفعا أكثر، وأعطتني صبيّة بعض النقود وتركت لي العلبة.

دسّ يحيى نصف ما جمع الأولاد في جيبه.. قال هي خميرة لعمل الغد، ثم وزّع الباقي بنسبة ما باع كلّ منا.. وحين لم أنل شيئا وضع سائد قطعةً نقديةً من حصته في جيبي.

حبسْت دمعي.

ممارسة الحرية إحساس مذهل حتى وأنت مطارد.. لا مثيل للشعور بالانعتاق من كل قيد، أن تملك ذاتك.. تفعل ما تشاء لأنك تريده.. ينتهي عملك فتُسْلِم وجهك للريح وتمضي ولا من يردّك.. لا حساب على وقت أو تصرُّف.. تنام وتصحو وتأكل بلا رقيب.. المدينة مستباحة لأقدامك.. بشرها رهن باكتشافك. وجوه راضية، وأخرى عابسة، نزقة أو هادئة.. محترمة أو حقيرة.. تنهرك أو تعطيك أو تشيح وتتجاهل نداءك.

تجوّلنا في شوارع عريضة.. بشرٌ وسيّارات ومنازل كبيرة تعبق أسوارها برائحة الياسمين وتتزين بألوان الورود، وأخرى يحرسها عساكر وحواجز، وحارات خالية رغم فخامة بيوتها، أسوارها عالية وبواباتها مغلقة، هادئة كأنَّ بشرها هجروها.

حذرنا يحيى: تجنبوا قاع المدينة والأسواق الكبيرة والمجمّعات التجارية.. فيها تكثف الشرطة دورياتها فبقينا حول الوسط.. أكلنا الشاورما.. شربنا المثلّجات.. دخلنا السينما للمرة الأولى وشاهدنا فيلم كاراتيه.. أحببْت البطل كثيرا وإنْ لم أحفظ اسمه.

حصيلة يومي الثاني كانت أكبر.. تعاطف راكبو السيارات مع فتى يبكي فبعت ما أحمل.. مددت لهم المناديل والاستجداء ودموعي، فأجزلوا العطاء دون أن يعرفوا أنني أبكي قهري والإحساس بالضياع.

في مطعم شعبي أكلنا الفرّوج المشوي وشربنا شايا ومرطبات.. تجوّلنا في منتزه قريب.. أشعلت سيجارة في إصرار يحيى فخنقني السعال مع النفس الأول.. سحبها وقال: صدرك خيخة لا يحتمل.

تعلّمت الإلحاح والاستعطاف والدعاء فبعت أكثر، واحتملت العمل والنوم على فرشة إسفنجية في مصنع صغير نخاف إضاءته ليلاً.

مبهرةٌ حكمة تفترش الطرق وتتناثر على أرصفة الشوارع.. يجرفك موجها في بحار ضاعت شطآنها، فتطفو بك لذة الاكتشاف وتسحبك إلى لا حدود.

إغواء الشوارع وإثارة الانتظار وتوقع مطاردة يلوّن يومك برهبة مدهشة.. أجّلت حلمي بالعثور على عمي تيسير.

بينما ألمّع كرسيا بالفرنيش لمحت المعلّم يومئ ليحيى.. انسحبا متتابعيْن إلى الغرفة الصغيرة عند نهاية المصنع وأغلقا بابها.. قليل من الوقت ثم خرج يحيى قبله.

وحده يحيى وأخوه ربحي يرافقان المعلّم إلى الغرفة الصغيرة في أحيان متباعدة، ثم يغلقها المعلّم بالمفتاح.

ونحن ندخل السينما همس يحيى: المعلّم معجب بك.. ابتسمت وقلت إنني أعمل بجد لأرضيه.

- سترتاح إن رافقته إلى الغرفة الصغيرة.

سرير وفرشة إسفنج ومنشفة مبقعة ونصفه الأسفل عاريا.. أغلق المعلّم الباب وما زلْت معقود اللسان مشلول الحركة.. سحبني من ذراعي ودسّ رأسي بين فخذيه وانتصابه في فمي المفتوح بالدهشة وهمس: أرني شطارتك.. قاومت.. حاولت التملّص والإفلات فتمكّن من شعري ورأسي.

تقيأت سوائله ونفسي.

هربت.. ركضت.. مشيت.. ضعت. جلست على الأرصفة وما زلت أبكي.. توقف شرطيّ عن ضبط حركة السير في ساعة الذروة وسمعني.. قلت إنني تهت عن دار الرعاية وأريد العودة إليها.

وما زال حذراً استدعى زميله.. أسئلة وشكّ وحيرة وقليل من الإشفاق وكثير من التشاور قرّرا أخذي إلى المخفر لمحضر وإجراء.. قطعت الشارع قبلهما حين أضاءت إشارة المرور لونها الأخضر فاختفيْت في زحمة السيارات وأنقذني اندفاعها.. دخلت مطعما أتسوّل من الزبائن فطردني العامل وهدّدني.. تسوَّلت عند الباب ما يكفي لعودتي.

ضربني مشرفو الدار وحبسوني فلم أعترف.. قلت تفرّقنا كلٌ في اتجاه وكلّ يبحث عن أهله... أنا أصرّ على الإنكار وهم لا يصدِّقون.. تعبوا فتركوني.

وجدوا عادل نائما في إعياء عند البوابة، وقبضت الشرطة على سائد وفراس ويونس يتسوّلون عند إشارات المرور.

- أليس لك أقارب؟ سألت يونس.

من منابع حزنه ارتشف الكلمات: كنت الولد الثالث لأخويْن لم أعرفهما.. جفّت بطن أمي سنوات بعد ولادتها وقبل أن تحمل بي.. لم أكمل شهري الأول حتى انقلب فرحهم غماً.. مات أبي وأخواي في حادث سير.. تدهور باص كانوا من بين ركابه. رفضت أمّي ما يهمسون به عن وجهي النحس، لكنها مرضت بعد الحادث وأقعدها الوجع.. هدّها البكاء والتعب لتكسب عيشنا.. لم أكمل الرابعة حتى ماتت.. قال الناس إنني منحوس ووجهي شؤم.. خالتي رفضت كلامهم لأنه تطيّر وحرام، هكذا قال إمام الجامع حين سألته عن صحة ما يقولون عن النحس والوجوه والعتبات، فأخذتني بين أولادها.. بس الظاهر أنني نحس بصحيح.. مرضت خالتي في رجليْها ولم تعد تمشي.. نادتني وقالت.. يا يونس، صحّتي لا تحتمل.. وفي الملجأ من يعتني بك أحسن مني، تلبس وتأكل وتشرب أكثر وأفضل من أولادي وتتعلّم في المدارس ببلاش.. روح الله يسهّل عليك.. بكيت بخوفي ورجوتها أن أبقى خادماً عندهم، أساعدها وأحضر لها أغراضها من السوق فدمعت واحتارت.. جرّني زوجها ودفعني في باص الأجرة ورماني في الملجأ ومن يومها لم يسأل عني أحد.. لا يعرفون هل عشت أم مت وأنا لا أعرف هل ما زالت خالتي على قيد الحياة ؟

مريضة أم تعافت.. والصحيح لم يعد يهمني.. أتدري؟ يوم رموني في الملجأ كنت غصناً طرياً قطعوه من شجرة، ثم التقيت يحيى فأسندني وعلمني، تصادقنا وهربت معه من الدار أول مرّة.. رافقته واعتدت حياة الشوارع.. المكسب والحريّة.

لن تصدِّق.. يفرحني أن أخدع الناس ليعطوني، أحسّ أنني أكثر ذكاء منهم.. ولن تتصوّر فرحي حين أفلت من الشرطة.. مغامرة الهروب والملاحقة تثيرني.. أن أركض وأركض وأفلت منهم.. هل تعرف أنني أتقصّد أحيانا أن يلمحني الشرطي، ثم أزوغ منه في المحلاّت والطرق؟.. لهذا ألبس دائما قميصيْن.. أختفي وأخلع الأول وأرميه حين تبدأ المغامرة والركض خلفي.. ثم أضع يدي في جيبي وأعود وأنا في القميص الثاني لأمرّ بالشرطي في هدوء بينما يبحث عن ولد في قميصي المخلوع.

هرب يونس من دار الرعاية.. اختفى بينما المشرف والحارس يفضّان عراكا بين الأولاد في الملعب.

طردوا الحارس وظلّ هروب يونس من بوّابة مغلقة لغزاً محيّراً لم يحلّه أحد.

* * *

أنا وعادل عثرنا على أهلنا في وقت واحد فخرجْتُ من الدار وأصرّ على البقاء فيها.

توصّل المشرف النفسي إلى عنوان والده متزامنا مع وصوله إلى عمّي تيسير.

ولقاء عادل بوالده فكرة المشرف وبتشجيع منه.. اقتنع عادل دون حماس وبشروط لم يتنازل عنها.

تُسابقنا القناعة بأن الدم «بيحنّ وما بيصير ميّة» تابعنا ما جرى بين عادل وأبيه.. رجونا المشرف أن يسمح بمراقبة الحدث من بعيد دون تدخُّل فلا صبر لنا على النتيجة أو انتظار التفاصيل.

تفهّم المشرف اندفاعنا إلى تجربة نجاحها أو فشلها يخصّ حياة ومستقبل كل واحد منا، فنتائجها قد تحيي أو تميت الأمل في العثور على أهل لا نعرف.. هي اختبار لقدرة الدم الذي يحنّ فيحرك غريزة فطرية لتحدِّد للآباء والأمهات أبناء نبذوهم، يستدلون عليهم من بين ألوف البشر حتى وإن غابوا عمرهم.. وحده الدم قادر على هداية آباء وأمهات تاهوا على مفارق الحياة.. فهدير الحنين في الدماء هو الأمل الوحيد لأولاد دور الرعاية.. لا شيء سيجبر آباء هربوا على الاعتراف بأبناءٍ نبذوهم إن عجز هدير الحنين في دمائهم.

معجزة الدم الذي لا يصير ميّة نور أضاء سواد أحلامنا، زيّن أيامنا ورطّب جفافها.. أن يظهر وجهٌ من الحياة فجأة فيندفع إلى أحدنا، يضمّه ويصرخ أنت من دمي ولحمي سامحني لأني رميْتك.

حلم يقظة ومنام راودنا في كلّ وقت.

وضعَ عادل ما يصبّروننا به على محكّ التجربة.. «أن لا يعرف الأب أنه سيقابل ابنه لا تصريحا ولا تلميحا» كان شرطا لم يتنازل عنه عادل. قال: لو دلّته غريزته عليّ وعرفني، وثبت أن الدم لا يصبح ماء، فلن أتركه وسأرعاه وأعيش تحت قدميه وأكون خادما له ما حييت.

اندفعنا بالأمل والرجاء إلى التجربة.

والد عادل اختار مقهى قريبا من سكنه للقاء غامض مع من لا يعرف، وربما حيّر الرجل وأثار شكوكه اتصال من غريب رفض الإفصاح عن اسمه، ولعلّه خشي الابتعاد عن دائرة معارفه تحسباً وخشية.. قال للمشرف إنه يتردّد على هذا المقهى كلّ مساء ويلتقي أصحابه فيه. وسينتظره هناك.

جلسنا نحن الأربعة، أسرة عادل، مع المشرف في مقهى مقابل يتيح لنا المتابعة.

عادل جلس وحيدا إلى طاولة يتململ بنفاذ صبر، وانزوت طاولة أبيه عن أنظارنا.

مكتئبا خرج عادل بعد أكثر من ساعة فغالى المشرف في لومه.. قال إنه مسؤول عن فشل التجربة، فعدم دخول المشرف معه حيّر والده، فالاتفاق بينهما أنه سيقابل شخصين أمْر أحدهما يهمّه كثيرا، ولم يعرف تفاصيل أكثر رغم إلحاحه لأن المشرف وفى بوعده لعادل والتزم بالشرط، أن لا يلمّح إلى الدار أو يذكر اسمه أو صفته.. وربما بحث أبوه عن رجلين عرفهما في حياته، ولم يخطر بباله أن ابنا نبذه من سنين يُخْضِعه لتجربة الدم الذي لا يصير ميّة!. فلم يلتفت ليافع في مقهى لا يحيد ببصره عنه.

كعدوّين افترق والدا عادل بعد زواج قصير.. انقلبت العشرة بينهما حقدا ورفضا منذ إنجابه.. مرّت سنوات قبل أن يعرف الوالد أن طليقته تركت طفلهما وسافرت مع زوجها فقد غيّر محل إقامته ورقم هاتفه فضاع أثره سنوات.. لكنه رفض -كما تقول الأوراق- بعد العثور عليه استرداد الصبي، فهو وحيد ومريض ومعاشه بالكاد يغطّي دواءه، والحكومة والملجأ أقدر على توفير المأكل والمشرب والمنام وتعليم الولد صنعة.

احتالت اللهفة على وجه عادل فظل جامدا في تضارب مشاعره والمشرف يزفّ له خبر عثوره على أبيه.. سرق فرح اللحظة حقد طاغ على من نبذه واختفى.

انزوى في ركن من الملعب الواسع، وكذئب جريح أقعى فوق ركبتيْه، وضمّ ساقيْه إلى صدره وأسقط رأسه بينهما، فلم نعرف هل بكى أم غاص في نفسه ساعات؟.

تاهت بوصلة الجينات ورابطة دم لم تعزِّزها ممارسات العواطف.

مسح عادل دمعه وهدأ.. اعترف لنا بالشبه الكبير مع والده وروى ما دار: ظل الرجل- لم يقل أبي - يراقب الداخلين منتظراً من لا يعرف.. عيناه لا تبارحان الباب يتفحّص وجوه الداخلين بريبة فلم يبادر إليه أحد.. تبرَّم وضاق بيافع قبالته يراقب سكناته.. بل توجَّس من تحديق في وجهه طال.. تحسّس جيبه مرّات كأنما خشي أن أسرقه! سقطت مسبحته على الأرض فركضْت والتقطتها.. شكرني في استغراب وابتسم في تحفُظ وازداد ريبة.. عاد إلى التأفف ومراقبة الوقت.. أكثر من ساعة وعدّة فناجين يانسون. سعل كثيراً.. دفع الحساب ساخطاً.. ثم رمقني بنظرة استغراب وخرج.

هدهد المشرف حزنه ولامه على شرطه.

ابتلع عادل حزنه.. هزّ كتفيه وقال إنه غير مكترث بعلاقة مع رجل لم تتحرّك رابطة دمه لوجه يشبهه.. فقط.. أطال النظر إليه وهو يتناول المسبحة واحتار قليلا، وكلّ ما فعله أنْ بارك له في صحّته.. رجل لم ينتبه إلى تشابه اللون ومطابقة الملامح.. وتساءل في قهر: ألا يعرف صورته؟ ألم يتصوّر أبدا؟ ألا ينظر في مرآة؟ ألا يحلق ذقنه كل صباح؟

لم يعد المشرف النفسي إلى الحديث عن جينات لا تخطيء أنسابها، ولا عن رابطة دم تتجاوز بحنينها المسافات والنبْذ، وتحطّمت آمالنا في أن تخرج وجوه من زحام الحياة فتستدلّ علينا بالغريزة وبحنين دم لا يصير ميّة.

عصفت تجربة عادل بنفوسنا وذرّت آمالنا بالوصول إلى من تركنا واختفى.

بكل خيبة أملنا وسواد القهر سخرنا من نظريّات المشرف النفسي، فتوقف عن تبرير الفشل في رابطة فطرية رسبتْ في أول امتحان لها.

3

افقأ عيني الأفعى إن قتلتها، الأن صورة قاتلها تنطبع في بؤبؤ عيونها ليراها القرين، فلا يكف عن ملاحقة قاتلها حتى ينتقم لها

«أسطورة عالمية»

سفيان يشبه أمّه.. نظرتها المتحدِّية إذ تكابد آلامها بصمت وترفع، وحَسَن يجرّ غزارة شعرها ثائراً لاعناً حتى البكاء، تغوص ركلاته في بطنها وتدكّان ظهرها، فيزحف جسدها فوق أرض الباحة كأنما يرفض الانفصال عنها فتدميها الخشونة. وجروحها تنزف دمها.

تبدّى ضعفي نحو الصبي منذ عاد، لا لأنه يشبه أمّه حد التطابق، أو لأني سبب ما هو فيه، ولا ليقيني أن ليس له في العالم سواي، بل لإيماني بأن عذابي بوجوده سيسجل في ميزان حسناتي، ويخفف من ذنبي ويضاعف ثوابي لصبري على مرارة التذكر كل لحظة بوجه يستعيد عذابات الحادثة وما تلاها.

يوم أودعت سفيان دار الرعاية اسلمت أمره لرب العالمين.. ثم شغلتني عنه الحياة والثروة سنوات.

سقطت سماعة الهاتف من يدي حين اتصل بي أول مرة.. سمعت صوته فانهارت مقاومتي.. كان فرحه يسابق طلبه، أن أكفله وأمنحه فرصة ما كان والده ابن عمّي حسن ليقبل بأقل منها.

قطّعت صلتي بدار الرعاية منذ أودعت سفيان فيها، ثم بعد زيارة المشرف الأول لي وتعاملي معه بطريقة لم تخب فيها فراستي ومعرفتي بالرجال.

بعد سنوات من هجرتي إلى دبي، أربع أو خمس، زارني مشرف من دار الرعاية، قال إنه في دبي لعمل، مؤتمر أو ندوة لا أذكر، وهو مكلّف من الوزارة بالبحث عني لاسترداد قريبي اليتيم سفيان عبد الجبّار.

لم أكن أملك يومها غير ورشة تصليح السيارات ومراهنات متباعدة على حاويات الميناء.

قال المشرف: سفيان ولد نبيه وحرام أن يتربى مع أطفال لا دافع للعلم عندهم، سيضيع.. لا مستقبل له في الدار، فحين يبلغ الثامنة عشرة سيخرج منها حسب قانون الدور وسيكون دون علم أو شهادة، ولا مكان ولا أهل وقد ينحرف ويضيع.. وسفيان له أهل وعائلة معروفة.. ولا يجوز أن يبقى مع أولاد لا هدف لهم غير البحث عمّن أنجبهم ورماهم، وبعضهم رفقة سوء ناقمون على كلّ شيْ، وألقى علي خطبة عن أجر رعاية اليتيم وثواب كفالته.

رطوبة الصيف سابقتنا إلى أكواب ماء بارد فسحّت مطرها على الصينية، وسخونة فناجين القهوة خجلت من قيظ الصيف في ورشة مكشوفة.. وأنا في عفريتة العمل بزيوتها وشحومها شرحت للمشرف صعوبة الحياة وقلّة الدخل من تصليح السيارات في بلد يتفاخر بسياراته الحديثة.. قلت والله يا رجل لا مكان للولد إلا أن ينام بيني وبين زوجتي! فالشقة غرفتان صغيرتان، أنا وزوجتي في واحدة، والثانية لأولادي الثلاثة، ووضعي لا يسمح باستئجار بيت أكبر، وربما تحسَّنت ظروفي في المستقبل.

أبدى تفهما وظل حائراً فتشجّعت.

أخرجت مظروفاً فيه خمسة آلاف درهم تركته مفتوحا.. تحسّبت من ردّة فعله، لكن لم يكن أمامي غير التجربة.. قلت لنفسي إذا كان ابن حلال وصادق فسيرفض وربما فضحني، أما إن قبل فسيعفيني من كفالة الولد.

- هذا المبلغ، وهو كلّ ما أملك، تبرع مني للدار لعنايتهم بسفيان وأمثاله.. أرجو أن تقدّمه باسم أي محسن غيري لأنك لم تجدني، ولم تعثر على عنواني. وسأتصل بك حالما تستقر أموري ويسمح وضعي برعاية الصبي وتعليمه.

دسّ المظروف في جيبه.. لم يسأل عن قيمته ولم يعدّ ما فيه، ثم غادر مسرعاً وما زلت أؤكد بأنني سأتصل بالدار يوم تتحسّن ظروفي.

سنوات مرّت.. تعلّمت فيها طرد الأفكار بالصبر عليها، أنْ أقتنع بالأقدار واختلاف البشر وأرزاقهم وأحوالهم، فالله سبحانه يسبّب الأسباب ويسخر الناس لتحقيقها.. هي أقدارٌ مكتوبةٌ في لوح محفوظ، ولكلّ امرؤ ما سُطِّر له، ولسنا إلا أدوات لتحقيق المكتوب. وقَدَرُ سفيان أن يعيش يتيماً، ولم أكن غير أداة لتنفيذ ما كُتِبَ على جبينه ولا بد أن تراه عيناه!

غرَسَتْ فكرة الأقدار هدوء النوم في أهدابي، واندحرت أمام الإيمان بها بعض الكوابيس إلا بعد عشاء دسم، فأسقطْتُ وجبته من حياتي.

مريحٌ أن تلقي أحمالك على أقدار تحتمِل كل ذنوب البشر.

شاغلتني الحياة وإن ظل وجه سفيان الطفل وهو يتعلّق بسعاد يطلّ فيعذبني، حين يتفوّق أولادي، وهم ينعمون بالنوادي والبذخ يدوّي بكاؤه في أذني، وسوائل وجهه تغرق ملامحه.. طفل وحيد لم أكفله، ولم أترك له والديْه.

صعقني اتصاله الأول.

ارتجفت بالحيرة والمفاجأة والموظف يصر على أن سفيان حسن عبد الجبّار على الهاتف.

لدغني صوته فأسقطت سمّاعة التلفون. أعاد الاتصال فألقيت اللوم على خطوط تتقطع.

منمَّق الحديث هادئ الصوت مثل أبيه.. ترحمت على حسن وقلت: صحيح الولد سرُّ أبيه... جملة تعلمتها من زبون للكراج أزهري، قالها يوما عن أولادي بينما أفاخر بتفوقهم، فسألت مازحا لماذا لا يقولون سرّ أمّه؟ فهي تتابع دراستهم وتعرف أحوالهم أكثر مني.. ضحك وقال الرجال قوامون على النساء بما أنفقوا.. قلت صحيح! أنا جمعت الثروة ووفرت الحياة المريحة والمدارس الغالية والمدرسين الخصوصيين.. وماذا كانت ستفعل لولا تدبيري؟ من الهجرة وحتى الثروة.. ولو بقيت في البلدة فأكثر المستطاع كلية دار العلوم أو أية جامعة قريبة، لا مدارس أجنبية ولا جامعات رسومها تقطع الظهر. لهذا فهم سرّي وحدي.

وصل مشرف آخر من الدار لترتيب كفالة سفيان وانتقاله إلى دبي.. حدثني عن ذكائه وتميّزه بإعجاب، وقال إنه من بحث عني شهورا حتى عثر علي فمنذ أخبره سفيان عن قريب في دبي لا يعرف غير اسمه قرر الوصول إلي مهما كلّف الأمر.. زار البلدة واستدلَّ على مكاني.. وحدّثه ناسها عني وعن الأستاذ حسن وعلمه وعن الحا...

احتارت الكلمة بين عقله وشفتيه.. أيكمل أم هي زلّة لسان لا يعرف نتائجها.. تلوّن وجهه بالحيرة وارتبك.. قاطعْته فطلبت شايا وقمت من فوري لعمل لأداري اضطرابي لكنني ترفعت عن سؤاله عما يعرف؟ أو عما قاله لسفيان عن والديه.

في انبهار المشرف الثاني بما أملك تصرّفت كثريٌّ قادر.. أعطيته مغلفاً فيه مبلغ كبير وتركته مفتوحاً ولم أطلب إيصالاً.. قدَّرت أتعابه وثمّنت بحثه عني واهتمامه بسفيان، وتوقَّعت أن يترك منه -حسب ذمّته وضميره- تبرعاً للدار.

- سأتكفل بالمعاملات ونفقات السفر والملابس وما تطلبه مني حتى التحاق الصبي بنا.

لهج بشكري، ودعا لي بمزيد من نعم ربّي.

سألته عن زميله فقال إنه ترك العمل بعد زيارة دبي مباشرة، وانقطعت صلته بالدار منذ ذلك اليوم.

ابتسمت لذكائي في حل عُقَد الحياة بالمال..طريقة تذلل الصعاب، وانتشيت بنظرة لي لم تخب في كشف معادن الرجال.

أسهم حامد في تذليل عقبات التحاق سفيان بنا بنفوذ معارفه.. تفحّص صورته على المعاملة فدمعت عيناه وذكر الحادثة أمامي للمرة الأولى والأخيرة. قال: ما زلت لا أصدق.. مستحيل أن تخون الأستاذ حسن.. أقسم أنها كانت تعشق تراب رجليه.. لو سمعتها وهي تتحدث عنه، أو رأيتها وهي تنتظر عودته وتستعد له!. كنت أحسده على امرأة عاشقة مثلها.. أقص شواربي إن لم يكن في الحادثة لغز.. خطأ أو ملعوب.. أمّا أن تخونه فمن رابع المستحيلات.. المشكلة أنه تسرّع وقتلها.. حتى لم يسألها.. لم يترك لها فرصة للدفاع أو التبرير.. وابن عمّها جبان لم يدافع عنها ولم يفسّر وجوده في حوشها.. قفز عن السور مثل قط مذعور.. أقسم بالله أنه ملعوب.. دبّره أحدهم ليطلّقها.. يا رجل فكّر معي.. كيف عرف أن الغريب في داره والشاب بالكاد وصل؟

مسكين الأستاذ حسن رحمه الله عليه وغفر له.. يا أخي.. نفس البني آدم بئر بلا قرار!. أراه يغرق فيها كأن روحها في قعر بئر وتناديه! وضعْتُ ابنه في حجره فظل قطعة صخر.. وجهه لا يحزن ولا يفرح، لا يرى ولا يسمع.. طفله يبكي فلا يهتزّ.. كأنه ليس من صلبه!. أظن والله العليم أنه في أيامه الأخيرة راجع نفسه وندم على تسرّعه.. عجيب أمر هذا المتعلّم ماذا ترك لغير المتعلمين؟! لا أصدّق أن هذا حدث في لمح البصر.. استغفر الله العظيم.. يا أخي الشكّ نار، إن أشعلتها لا تنطفئ، تحرق الأخضر واليابس.. كبّر الوشاة الشك في نفسه.. حسبي الله ونعم الوكيل على من ظلمها.

لم أحتمل دعاءه علي.. قلت وأنا أغادر مكتبه: تعدّدت الأسباب والموت واحد.. انتهى عمرها.. مسكين حسن.. لم يكن بحاجة إلى فضيحة يختم بها عمره.. دمّرته الحادثة كما تعرف.

ورجوته -في فورة عواطفه- ألا يلمّح لسفيان بما يعرف.. فالولد سيجنُّ أو يموت لو عرف التفاصيل، وسنقضي عليه ويضيع مستقبله، واتفقنا على ما يجب أن يعرفه.. أن مرضاً غريباً أفقده والديه.

توسّل حامد أن يكفل سفيان إكراماً لذكرى والده، فقد عطف على يتمه دون الناس، وعلّمه ورعاه حتى الحادثة. وكفالة يتيمه أقل واجب لرجل لم تنجب البلدة أخاً له.

شكرته ورفضت وتركته عند هذا الحدّ من الماضي والحاضر ولدغات ضميري.

أذهلني الشبه بين سفيان وأمّه.. حتى في مراهقته، حين تحتار قسمات اليافعين بين الطفولة والشباب فتتشوّه، ثم تتشكّل وسامةً أو قبحا، تتضخّم

الملامح وتغزوها البثور قبل أن تستقر على حال، لكن سفيان المراهق وسيم ويشبهها.

ربما كان قد تجاوز الثالثة يوم الحادثة.. صراخه يائس وهو يستنكر ما يفعله أبوه، وطفولته تستجدي من ينجد أمّه. تعلّق بقدمها وينابيها.. سحبته سعاد بعيداً وسوائل وجهه تفيض وتغرقه.

لسفيان دقة أنفها.. أنوف عائلة عبد الجبّار تزداد ضخامة كلما تقدَّمت بهم الأيام.. وجنتاه عاليتان.. وله صفاء بشرتها وترفعها.

تمتد أعمار الناس بأولادٍ وأحفادٍ يشبهونهم.. كأنما تبعث بهم.

وسفيان نسخة منها فهل يبحث عني لحاجته أم هو قرين أمّه جاء يثأر لها؟

حدّثني بقصة عثوره عليّ قال: عرفت صلتنا من أوراق الدار فلم تنقطع رسائلي للوزارة أو إلحاحي على المشرفين .. بعثت الرسائل كل يوم فأرسلوا من بحث عنك في دبي فلم يجدك.. لكني لم أيأس ورسائلي لم تتوقف، قالوا دبي مدينة كبيرة ولا ذكر لعمِّك في دليل تلفونها... لكن الله بعث لي المشرف الطيب فلم يتوقف عن البحث عنك وحتى أوصلني إليك، وأنقذني من مصيري في الملجأ.

أردف بعد صمت فانفطر قلبي: لا تعرف يا عمّ ماذا يعني أن تتربّى في ملجأ بين أطفالٍ بلا طموح؟ اختنقت أحلامي في أن أكون طبيباً.. ولن تتصوّر ما يحدث هناك.

جرّحتني كلمة عمّي، وأضحكْتني الطبيب فآلمتْه سخريتي.. صمَت برهة وقال بتأكيد وإصرار: سأعيد سيرة والدي كما حدّثني عنها المشرف،

ولن يتحقق إن لم تمدّ لي يدك.. وأنا على استعداد لسداد ما تنفقه عليّ بعد أن أتخرج.. كلّ قرش.

تذكّرت ابن عمي حسن وهو يبيع أرضه لوالدي مقابل تعليمه في القاهرة.. يومها استنكر أبي مصاريف الدراسة والإقامة، وهو عمّه الكبير ومن كفله بعد موت والده وزواج أمه.. بلا تردد تنازل حسن عن أرضه ليتعلم.. وحسن أول من تخرج من بلدتنا من دار العلوم في القاهرة، فصار مجلسه موئلا لكبار البلدة يستزيدون من علمه الغزير وما يحفظه من أمثال وحكم وأخبار الأمم.

ترحّمت عليهما وقلت «صحيح أنه من خلّف ما مات».

غمرني الامتنان لمشرف غريب رأف بالصبي فأخفى عنه الحادثة، وقطّع صلته بالبلدة فأقنعه بأن قريبه الوحيد هاجر منها.

اعترضت سعاد على كفالتي لسفيان ولم تتقبل إقامته معنا، تجادلنا طويلاً، قلت في انفجار غضبي: انتهى الأمر.. سأكفله وأعلّمه، فإن نجح كان به، وإلا فسيعمل معي في المجمّع ما دام أولادنا سيتعلمون أطبّاء ومهندسين! والقريب أولى من الغريب، ولن يكون المشرف أحنّ عليه منّي! والولد يطلب نجدتي ولن أخذله، ويظل ابن عبد الجبّار ومن لحمنا ودمنا.

تقبّل أولادي فكرة وجوده معنا مرغمين.

كبر السؤال بحضور سفيان ؛ هل كانت حياتنا ستتغير لو قاومتُ رغبتي في صبيّة؟ غزالة أفقدتني صوابي.. دمّرني القهر من حظ حسن بمثلها.. منذ رأيتها أشعلتني الرغبة وجرفني شغفي إليها فأهبُّ بغيرتي أختلق الأعذار لأدخل دار حسن، قبل خروجه، ومع وصوله من المدرسة، صباحاً ومساءً وظهراً.

وحدها زوجته أدركت مراميّ.. تحاشت وجودي بنظرات متعالية فثارت رغبتي أكثر. لا تخطئ امرأة حيلة رجل يشتهيها.. وفي عينيْها ما يؤكد أنها تعرف.. سخريتها الصامتة من الأسئلة وأعذاري!

للنساء حاسة لا تنطوي عليها أكاذيب رجل عاشق! وكانت لّماحة واعية لسطوة جمالها.. فاتنة.. أدركت أن رأسي دار منذ رأيتها وأنني أشتهيها.

أغرقْتُ دار حسن بمحاصيل الأرض فلم تشكر أو تهتم، بل تقطّب وتبتعد بينما يلهج حسن بكرمي وأخّوتي فتبتسم في إشفاق على طيبة رجلها.. مشهد لم يتغير في كل مرة.

زادني تمنُّعها عشقاً وأحرقتني شهوتي.

عدْت كسيفاً يوم صاحت من وراء بابها المغلق بأنّ حسن في المدرسة، وعليَّ أن أعود في وجوده.

خبطت ما أحمله بالأرض فقالت سعاد: « القط بحب خَنّاقه».. لم أعقّب وإن تخوَّفت من فطنتها: هل تلمّح لجفاء زوجة حسن! أم أنها أدركت بغريزة الأنثى ولعي بالأخرى فأشعلت غيرتها؟ وغيرة النساء قاتلة وخيالها بلا مدى.

من شقِّ باب الحوش لمحتها تلاعب صغيرها فسابقني لهاثي إليها، طبقْتُ البوابة وتأجّج لهيب رأسي.. جَفَلَت بالمباغتة وألجمتها جرأتي لحظة، رفعت طفلها إلى صدرها كمن تحتمي به، فبدأت أشرح مشاعري.. وهي تتقهقر وأنا ألاحقها بشهوة تعميني وأؤكد لها أنني أحبها. مستعد لإغراقها بما تطلب. أعرف كيف أمتّع صبية مثلها.. سأطلّق سعاد وأتزوجها.

لم يوقف اندفاعي غضبها ولا سخريتها وهي تشد طفلها إلى صدرها أكثر.. تتراجع وأنا أتقدم حتى السور فكدت ألامسها.. تمالَكَت نفسها ودفعتني وهربت.. فتَحَتْ البوابة وأمرتني: أخرج! حاولْتُ احتضانها فصفعتني.

وصفعتها تحك خدّي وصوت انطباق بوابتها في أذني سحبْتُ سعاد إلى السرير، وأفرغت شهوة تمرّغت وأهينت فاستسلَمَت في صمتٍ وبلا تجاوب وهي تبحلق في غضبي وسخطي.

مشاعر متباينة سرقت مني العقل والقلب فكبر سؤال الرعب «كيف أواجه حسن؟ ماذا أقول وكيف أعتذر؟

أيّام التحسب والخوف بلا نهاية.. خارت قواي وحسن يطلبني فتلكأت. لمحته بالباب فلم تحملني ساقاي، همّش وعاتب غيابي فلملمت شظايا نفسي.

حيّرتني زوجةٌ سترت نزوتي.. أتراها خشيت ألا يصدقها أم راعت مشاعره من خيانة صديقه وابن عمّه الأقرب؟

ازددت رغبة في زوجة حسن.

* * *

وهي تطوي ثياب الصغار المغسولة قالت سعاد: زوجة حسن تتسلّى برجال البلدة.. تتزين وتخرج إلى الحوش وتتمخطر كأنها عروس في جلوتها.. صحيح أنها في دارها، لكن بيوت الناس ماسكة بخنّاق بعضها وباحاتها مكشوفة، وتعرف أن عيون الرجال تتلصص عليها من النوافذ وشقوق الأبواب.

منذ اليوم الأول لزواج حسن تبدّت غيرة سعاد من صبيّة فاتنة، فتناثرت سمومها في تعليقات تصيّدت مناسباتها.

طال صمتي.. أردفت وهي ترتب الملابس في الخزانة وظهرها لي: كلّ رجال البلدة ريالتهم نازلة عليها كأنهم ما شافوا نسوان، وهي تعرف إعجابهم بها فتفرد شعرها وتتغنّج كأنها تلاعب ابنها بينما تتباهى بحسنها ودلالها، ولن يهدأ بال هذه الحيّة حتى تخرِّب البلد وتقعد على تلّها.

وسعاد لم تتوقف عن وصف زوجة حسن بالحيّة.. حيّة من تحت تبن.. الحيّة لن تجيبها البرّ حتى يجنُّ رجال البلدة ويخربوا بيوتهم.. الحيّة أخرجت سيدنا آدم من الجنّة، ولم تشر إليها بعد ذلك إلا «بالحيّة».

أراحني أن أصدِّق أنها أفعى تغويني، تتعمّد البقاء في الحوش لأراها.. أمّا عن دخولها حجرتها كلّما زرتهم فهو دلال أنثى تدرك سطوة جمالها.

هل تفسِّر تشبيهات سعاد لها بالحيّة كوابيس لازمت منامي؟.

كرهت الليل.

منذ رأيتها عروساً يزهو بها حسن قارنت كل ما فيها بسعاد فاسوّدت حياتي.. تعاظم قهري من حظ رجل نصيبه الجمال والفتنة فلا يتخلّى عن رزانته. ولو كانت الصبية بين ذراعيّ لمارست معها فنون الرعونة، وعزفت على جسدها، كلّ قطعة منه، ألحان الحب والشبق.

تجاهلت سعاد دلالات حرصي على صحة حسن وابتسمت عندما قلت:

- هذه الصبية داهية تمتص عافية حسن ولا ترتوي، وغسيلها لا ينقطع عن الحبال كلّ صباح كأنها تعلن للناس فحولته، ثم يعود غسيلها كلما رجع من المدرسة، ولم أدخل بيتهم إلا ولمحت بلل شعرها.

- تمتص عافيته ليموت وتعود إلى أهلها.. وابن عمّك مثل المفجوع عليها مع أنه صبر عمره بلا نسوان.. أتدري؟! سمعت أن والدها أجبرها على الزواج من حسن ورفض ابن عمّها.. طمع في مكانته وشهادة من دار العلوم وملاّك وابن عبد الجبّار فنسي فرق العمر. وأكيد أن قلبها ما زال مع الآخر.. ردّت سعاد بغلّ.

مما قالته سعاد التمعت فكرة الحادثة. رسمْتُ وخططتُ وأنا في حضن زوجة «معصعصة» كما تصفها أمّي، بينما يتمرّغ حسن فوق استدارات فتيّة.

سعاد قريبة لأمي من بعيد.. شديدة النحول لم يعرف جسدها الاستدارات، ولا عرفها في زمن الرخاء.. سمراء.. خجولة حتى تزوجنا.. وصفتها أمّي بعد شهور من الزواج بأنها «محراك شر» لا يهدأ حتى يشتبك من حولها، وهي «حيّة من تحت تبن» تلدغ وتختفي دون أن ينتبه لها أحد.

طريق الأفكار سهل بلا عقبات حين تخطِّط بحسابات الخيال وحده.. تفترض ما يروق لفهمك وتقديرك، فتسقط على جوانب الفكرة ردود أفعال الآخرين.. تحكم على الظاهر من نفوسهم فتخطئ، ثم يصدمك ما تعج به دروب التنفيذ من غير المتوقع وبعد أن يبرز على جانبيها ما لم يكن في حسبانك، ونفوس البشر بئر بلا قرار وبحر يسابق امتداد الأفق ولا شطآن.

فكّرت وخططت.. أقنعت نفسي بأن حسن سيطلقها لو أثرْت حولها فضيحة، يسرّحها بهدوء ويعيدها إلى أهلها بكتمان وحرص كعادته في معالجة الأمور.. منذ كنا صغاراً أندفع أنا بينما يتروّى ويحسب ويفكر.. وسيتحكّم خوفه على سمعته وصورته أمام الناس في أية خطوة أو قرار.

على هذا الاحتمال رسمت خطتي، بنيتها على يقيني من حكمة حسن وتروِّيه في معالجة أمر يمسّه.. قلت لنفسي: ثم أنشر الفضيحة بين من أعرف فتلاحقها الشائعات ولا يفكر فيها رجل من بلدتنا ولا قريتها، حينها أتقدم لألعب دور الشهم المؤمن ببراءتها، وأتزوجها لأسترها.

الحادثة كشفت جهلي بحسن.. رغم صداقتنا وتربيتنا معا أدركت أنني لم أكن أعرفه.. فمنذ وعيت وتعقُّله الظاهر أقرب إلى البرود، وكثيراً تندرت «ببرودة قلبه» أمامه فيبتسم.. لم أعرف أن تحت هدوئه ودماثته مرجل غيرة وناراً حارقة، ولم يخطر ببالي أن تقصف ثورته عمرها في التو واللحظة.. فأقصى ما شطح إليه خيالي أن يخرج عن مألوفه ويطلّقها بفضيحة مدوية تهز البلدة وتشغلها.

في يوم الحادثة وصلت حوشهم وحسن ينقضّ عليها بالمجروف فتفرَّسَتْ وجهي بازدراء. تأخَّرْتُ عمْداً بينما انطَلَقَ حسن كمجنون. ألجمتني سرعة ما حدث.. والغريبة تسربلت بالصمت حتى الموت.. لم يترك لها هياج حسن فرصة دفاعٍ أو محاسبة.. طار صوابه وابن عمّها يقفز عن السور، استدار إليها وضربها وجرّها من شعرها.. مأخوذة لا تصدق ما يحدث طال صمتها.. لم تنطق.. هوى بالمجروف على رأسها. ترنَّحت ووقعت وعيناها تتساءلان.. يركلها ويدك بطنها وظهرها حين وصلت.. أغرق دمها كثافة شعرها.. ذاك الوجه ما زال يعذبني.. يهزّني ويحيّرني.. كأن ما يجري لها لا يعنيها.. أحداث مجنونة لا تستحق منها غير ازدراء السكوت.. رمقتني بنظرة احتقار أخرى قبل أن تنطفئ حياتها، في عينيها يقين لا يملك البرهان على أني قاتلها.. لو أنها صرخت أو اتهمتني لكذّبتها ودافعت عن نفسي وأنكرْتُ تدبيري.

سريعا ارتعَشَتْ بالموت.

سعاد تواطأت بالسكوت عما خمّنَتْ وإن وشت تلميحاتها وتصرفها بأنها تعرف وتتعذب بصمتها مثلي.. ترتجف لباب يُفتح.. تقلق لجملة لم يقصدها قائلها. تفزُّ بذعرٍ لتهدهد كوابيس نومي، متشنجة تقرأ على رأسي.

هجر الهدوء أيامنا حتى بعد رحيل حسن.

ضاعت حقيقة الحادثة في هروب ابن عم زوجته.. اختفت حكاية مرسال دفعت له ليستصرخ نخوة ابن عمٍّ عاشق.. قال له المرسال إن زوجها يسيء معاملتها، وتريد طلاقها.

مدفوعاً بلوعة حب فاشل وجراح عشق لم تندمل، وبالأمل في استعادة الماضي جاء، فأرسلْتُ حسن ليداهمه في بيته.. حبكة بسيطة أو «ملعوب» كما يسميه حامد انقلب حادثة مروِّعة.

راقبت ابن عمّها حتى اقترب من منزل حسن، سابقت قهري إلى مدرسة البلدة. دخلت مكتب حسن فاستنكر وجودي.. اندفعت مصطنعاً الغضب وقلت لا يمكن السكوت إلى أن يتمرغ اسمه وسمعته في وحل الفضيحة أكثر، وعائلة عبد الجبار لن تحتمل مزيدا من همسات أهل البلدة وتعليقاتهم واستهتار زوجته.. واليوم تجاوز ابن عمّها كل الحدود فتجرأ على حرمة داره وعرضه أمام طفله وفي وضح النهار.

لم ينطق حسن.. لم يسأل أي ابن عم ولم يستنكر.. رمى ما في يده وانطلق نحو الدار.. وكثيرا أتساءل: هل تعذب حسن بقصة حب علم بها في قرية زوجته يوم كان مديراً لمدرستها قبل زواجه؟ ألم يكن مقتنعاً بحبها له؟ هل كبر شكه في قصة قديمة حتى انفجر بخطتي ليطلقها لكنه دمر ما حوله؟

يُفْتَن الناس بقصص الجنس والمال إذا توِّج الموت نهايتها.. تهزّ وجدانهم وتشطح بمخيلاتهم.. ضجَّت البلدة بمقتل شابة جميلة وهروب عاشق وانتقام زوج متعلم.. ظلمت قصصهم امرأة غريبة، وتعاطفت مع زوج مخدوع عاف الحياة حتى ابنه، ثم رحل مقهوراً.

أقعى حسن عند جثتها على الأرض ساكناً سادراً في وجوم رهيب.

توقف الزمن .. ونظرات حسن تطارد البعيد أخرج سيجارة وبدأ يدخن.. ذهوله المطلق أجبرنا على الصمت وشلّ حركتنا.. قاومت اندفاعي إلى جثتها لأطلب صفحها، لم أصدّق موتها. وسعاد لا تنبس تهدهد طفلا يصيح وجسدها هامد.

حين توقف خيط دمها خرج حسن عن صمته.. أسند رأسه بذراعيه وبدأ عويلاً مفجوعاً.. كم طال وكم بقينا لا أذكر.. فجأة اندفع خارجاً فلحقت به حتى المخفر.. قال للشرطي إنه وجدها مع غريب كانت تحبه فقتلها.

لم تفلح المحاولات في إخراج حسن من صمت روحه.. ظل ما قاله للشرطي اعترافه الأول والأخير.

صمت حسن وحتى مضى.

كان حسن يثق بي أكثر من الناس جميعاً، ثبت لي هذا يوم الحادثة.. منذ كنا صغيريْن ورغم اختلافنا ظل يحبني.. يناصرني في كل خلاف مع والدي ويرفض معايرته لي بنجاحه ومكانته.. حسن هادئ وأنا « فرخ جن» كما تصفني أمّي.. أحفظ أكثر النكات جرأة وفحشاً فيبتسم حسن في وقار.. تعلم حسن وتركت الدراسة بعد الإعدادية.. حريص بينما أسخو لأجمع الحب والمديح.. لم يعرف امرأة حتى تزوج بينما يشعل حفيف ثياب النساء

حرائقي.. تزوج ليكمل نصف دينه، وزوَّجوني خوفاً من رغبة جامحة تقود إلى فضيحة.. لكن حسن قَتَل زوجته وخرج من سجنه محطّماً.

سوْرة الغضب لشرف مهدور قلّصت الحكم إلى أربعة شهور.

حسن لم ينطق أثناء محاكمته ولو بكلمة.

بهرتني قدرة محامٍ يستجير بالشهود، محام لم يخسر قضية.. أوْكَلْتُ إليه الدفاع عن حسن.. فجاء برجال من قريتها شهدوا على قصة حب مع ابن عمها الهارب.

مُطْرِقٌ حسن، سادر في عالم لا حدود له، لا يعنيه ما يقال ولم يرفع بصره عن بلاط المحكمة، حتى والمحامي يصف كيف فقد رشده لحظة شاهد الزوجة وعشيقها في بيته وأمام طفله.

لم أحتمل.. غادرت القاعة وما زال المحامي يهيب بالمحكمة تقدير وضع زوج مسكين يهمُّ غريب بزوجته، فضاع عقله في سورة غضبه.

وحدي قرأت صمت حسن وشكّه يقطّعه، يرفض ما حدث نادم على شيء ما.. أعياه الفهم وأعجزته الملابسات، وسحبت الحيرة نفسه إلى محرقة تشوي عقله وقلبه فصمت.

الحادثة مزّقت حياتي وطاردتني كوابيسها.

تخيَّلت سفيان قرينا لأمه قطع القفار والبحار لينتقم رغم ما يبدي من ودّ وامتنان.. لدغ وجوده معنا هدوء حياتي.. بعث الماضي وبعثر الصمت! وفي عينيه أسئلة عن والديه لا تصدّق أجوبتي.

حضوره أعاد قصة جاهدت لأطوي تفاصيلها، أطار الراحة من نوافذ القلب والعقل.. أحيا مواجع قصة صُمْت الخميس والاثنين لتهجر فكري، لم أقطع فرضا فانغرس كابوسها في ليالي.. أفعى ملساء طولها بلا انتهاء تهاجمني، تلتف حول جسدي وتعتصر عظامي، أشدُّها فتقوى بينما تفحُّ ونابها يبحثان عن عينيّ.. أقاوم.. أبعد رأسي في فراغ الليل فتقترب أكثر.. مختنقاً بخوفي أصحو ويداي تحميان عنقي، وحلقي جاف كعلقم.

طويلاً تعالجت من التواء رقبتي والآلام.

عجِزَت أحجبة الشيخ رضوان المبروك عن اصطياد السكينة لروحي.. تمائم أراحت سائليه فامتدت طوابير المريدين ينشدون عونه.. استفزه عجزه في اصطياد الراحة لنفسي فابتدع وصفات جربتها فمدت كوابيسي لسانها في سخرية لخبرته وسمعته.

أغرقت سعاد فقراء ومهابيل البلدة بالكفارات فانتصرت عليها أفعى نومي.

لم أعد إلى بلدةٍ طاردتني أشباحها.. فارقتها إلى اغتراب لا حضور للأرواح فيه.. هدأ روعي في البعد عن البلدة. وحتى وصل سفيان فأعادني إلى عذاب الذكرى وبداية الحكاية.

أين سمعت قصة الأفعى وقرينها فسكنت ليالي؟

كان هذا في نصيحة جدتي يوم حادثة أخرى هزّت البلدة قبل زواجي بقليل.

سألت حسن: هل صحيح أن للأفعى قريناً يلاحق قاتلها؟

ضحك وقال: هذه أسطورة عالمية تجسِّد العداء الأزلي بين البشر والحيّة، فأم الأفاعي جميعها حرّضت حواء أم البشر جميعهم على مخالفة المقدّس وتجربة المحرّم.. وحواء بدورها أغوت آدم بتذوّق التفاحة المحرّمة فطردهم الله من فردوسه.. أغوت الحية المرأة والرجل فلعنها الله وجعلها عدوّة لنسلهما وقرر عداوتها للبشر: «هو يسحق رأسك وأنت تلدغين عقبه» وشعوب كثيرة تعتقد بهذه الأسطورة فيصرّون على من يقتل أفعى أن يفقأ عينيها لئلا يلاحقه قرينها ليقتصّ منه.

كان النهار يدير ظهره للعالم، والعصر يزحف على تعب الرجال حين شق الفضاء صراخ مذعور فتوقفنا عمّا في أيدينا وهرعنا نحو فزع رهيب.. تعلن الكوارث ذاتها بصراخ لا يشبهه صراخ آخر. كانت طفلة تعدو صوبنا في هلع وجنون.. تتوقف وتلفُّ حول نفسها وتشير إلى كعبها.. تستغيث ثم تركض من جديد.

خطت الطفلة فوق حيّة تكوَّمت ونامت تحت شمس الربيع بين العشب فلدغتها، قبل بئر البلدة بقليل.

وصلتها جدتي فثبّتتها في الأرض وتحلّق العمّال حولها.. اختلطت الآراء بالولولة والشفقة.. شقَّت جدتي غطاء رأسها وربطت كاحل الفتاة بقوة وحاولت تهدئتها، ثم وزَّعت أوامرها على الرجال.. ركض أحدهم ليحضر أهلها حين انطلقت خرطوشة صيد من بندقية والدي فنبح أحد كلابنا صرخة موته.

مسح والدي دمعة حزنه على كلبه الأثير والعامل يشق بطنه، وشرطت جدَّتي مكان النابيْن في كاحل الفتاة بسكّين طهّرتها بالنار.. بسملت وتوكلت على الله وشفاعة رسوله لخلاص المسكينة ودسّت ساق الطفلة النازف في الأحشاء الساخنة وما زال الكلب يستل روحه.

قالت جدتي: أحشاء الكلب تمتص السم من دم الملدوغ.

والصغيرة تذوي وتتهاوى ويضيع منها اللون، ويعلوها وهن وتشنجات متباعدة رفعها الرجال إلى حضن والدها فوق حمار، ساقها مغروسة في أحشاء كلب نافق وتشنجاتها تتقارب وتتلاحق.. ساروا إلى الطبيب الوحيد في المدينة المجاورة ووجوم الموت يصبغ وجوه الحاضرين. تنادينا من نقف على حافة اليفوعة والشباب لقتل حيّة التقطنا وصفها من فزع الفتاة وقالت إنها زحفت إلى رجم حجارة.. ركضنا بالهراوات فلحقت بنا نصيحة جدتي: من قتلها منكم فليفقأ عينيها، لأن صورته ستنطبع في بؤبؤهما حتى يراها القرين، فيلاحق قاتلها ويقتص منه حتى لو قطع البحار وغيّر الديار.

بعثرنا الرجم.. أحرقنا ما توفَّر من إطارات الكاوتشوك.. قالوا دخان المطاط يخنق الأفاعي فتهرب من أوكارها، فاختنقنا بالرائحة ولم تخرج.

عاد عويل الأهل المفجوع بجثة الطفلة.. قال الطبيب ركضت مسافة طويلة فانتشر السم في عروقها وداهم القلب، والحياة والموت بيد رب العالمين.

* * *

قرَّرت الهجرة من البلدة بحثا عن سلامٍ لروحي فتذكرت «محيميد».

اسمه حامد وإن لم تعرفه البلدة بغير محيميد.. صغّروا اسمه لعوزه وضعف بنيته. اختفى في يوم لم يقدِّم له فلم ينتبه لغيابه أحد.. فقط حين ظهرت النعمة على أمّه فجأة، ثم عاد إلى البلدة وجيها بعد سنوات، انتشل الناس اسم حامد من دفاتر نسيانهم.

فتى يتيم معدم، عمل في أرضنا قبل الحادثة، مات أبوه وما زال يدرج نحو السابعة، عملت أمه في حقول الناس وبيوتهم لتربّيه.. رعاه الأستاذ حسن لنباهة فيه حتى أكمل الابتدائية لكنه ترك الدراسة يوم عجزت أمّه عن مصاريفها.. تحمّل عبث العمال في أرضنا بصبر وقلة حيلة.

والعبث مع محيميد ظل تسلية تختصر تعب العمال وتقطّع أوقاتهم بالضحك، فتى غرير يصدّق ما يقال فيقع ضحيّة المقالب البريئة.

اتخذ المزاح منحى جديدا وتجاوز الحدود كلها يوم روى لي حلمه.

أقعى الفتى عند قدميّ بينما نستريح واشرب شايا أعدّه لي، وبلا مقدمات بدأ يقصّ علي حلمه.. يستل احداثه من أفق بعيد لا يوقفه صخب مني ولا سخرية.. أغاظني إيمان لا يعبأ بهرج الأسئلة ولا يقطعه انسياب التفاصيل، كيف يتبدّل عوزه إلى غنى لم تشهد البلدة مثيلا له منذ كانت، ثم زواجه في حفل باذخ من ابنة جاه ومال رفض الإفصاح عن اسمها.

ضجّ العمال بالسخرية من حلم كبير حتى على خيال الفتى وأنا أرويه لهم.

صرنا نبدأ نهارنا بمشاكسة الفتى الطائر مع أحلامه: هل زارك الحلم؟ هل تغيّرت العروس؟

يتجاهل اليافع سخريتنا ويجيب بجدية بأنه يراه في ليالٍ ويغيب في أخرى لكنه لا يبدل العروس.

يصخب ضحكنا أكثر.

تشبَّث الصبي بتلابيب حلم لا يغيّر تفاصيله: تشرق الشمس في مكان لا يعرفه.. يكشف الضوء عن بيت واسع وسيارات، ورجال ينحنون

لمقدمه، ومال لا يُحصى في خزانة كبيرة، وزوجة أجمل من زوجة الأستاذ حسن، وابنة جاهٍ وحسب!

في إلحاح منّي وشوش لي باسمها، فوقعْتُ على قفاي من أحلام هوجاء لا تعرف المستحيل، وحين توقفت عن الضحك همست: يا ولد ستذهب في داهية.. قول وغيِّر في هكذا حلم.. أو قل لملاك نومك أن يختار غيرها، فهذه بعيدة حتى على أسنان حلمك.

رغم توسّله بأن أحفظ سرّه همست باسم العروس للعمال، فانقلبوا على ظهورهم من الضحك.

- بس بلاش هالبنت.. بعيدة على أسنانك يا ولد.. صاح أحدهم من طرف الحقل.

نبّهنا عامل عاقل إلى أننا نلعب بالنار في موضوع يمس فتاة من البلدة.. وأية فتاة؟!

- وَلَه محيميد هل ستضرب بنت.. إن عصت أوامرك؟ سأل أحدهم.

- بل ستكون تاجاً على رأسي ووردة في قلبي.. فانقلب بعضنا على قفاه من الضحك إذ أجاب بلا تردد وتجاوز صراخ عبثنا كلّ حرص.

توقف بعض العمال عن مشاكسة الفتى الغرير خوفا من مكانة البنت وأهلها.. وفقدت دعاباتنا إثارتها بالتوجس والهمس.

هاجر محيميد بعد موت حسن بقليل.. اختفى في يوم لم يقدِّم له، ولم تعرف كامل تفاصيله.

بعد سنوات من هجرتي وفي جلسة هادئة في دبي عرفت قصة هجرة حامد، رواها في رغبة منه للبوح لم أسْعَ إليها، ففي علاقتي بحامد وقف الماضي حاجزا بيننا وإن ظل سندا لي كلما احتجته.

في علاقات البشر حين ينقلب الزمن، وتصبح يد من في القاع هي الأعلى، ويصير صاحب الكلمة، يُجْبر من كانت له اليد الطولى أن يطأطئ برأسه، فمن يبتسم لهم الحظ بالثراء والمكانة يقطّعون صلتهم مع الماضي ومن فيه لأنهم شهود على ما يودّون محوه في سيرهم، هم الذكرى لما يحاولون نسيانه.

حامد لم يتنكّر لي وإن حال الماضي دون أن تتبلور علاقتنا إلى صداقة فقد دارت الدنيا وتبدّلت الأدوار.. ارتفع بيننا حاجز من خشية حامد مما أعرفه، ومن عدم قدرتي على نسيان وتجاوز ما كان عليه وإن تعمّدت.. صارت علاقتنا أكثر حميمية مما بين المعارف، وأقل عمقاً من صداقة.

في جلسة ودّ في مكتبه، بينما يدخِّن الشيشة، روى لي قصة هجرته.

سمع اسم الرجل أول مرّة في بيت ابن عمّي حسن.. صديق وزميل من دار العلوم يعمل مدرِّساً في دبي، زار حسن مرات فأعان الفتى في واجب ضيافته.. كان ذلك بعد زواج حسن بقليل، فعطف الغريب على اليتيم وسأله عن حاله وأمّه في كلّ مرة رآه فيها.. مجاملة من قادرٍ لشاب فقير، لمسة حانية من رجل مجبول على العطف والمساعدة مثل صديقه حسن.

قال حسن يوماً، وأنا تعلّمت من حسن الكثير: قل لي من هو صديقك أقول لك من أنت.. أعجبتني الجملة فحفظتها. وذاكرتي تحفظ ما يعجبها ولا تنساه أبداً.

قال حامد إنه كره البلدة بعد خراب بيت الأستاذ حسن وموته وقرّر الرحيل فتوصّل إلى أهل الصديق ثم عنوانه في دبي، وطلب منه فرصةً حياة أفضل، فلبّى الرجل إكراماً لذكرى حسن.

لم يكن اعتراف حامد بجميل حسن في هجْرته وتبدل حاله هو ما أسعدني، بل محاولته ردّ جميل حسن إلي.. ذلك يعني وبشكل قاطع أن أحداً في البلدة لا يشك بدوري في الحادثة. فالفتى خدم ابن عمّي ولازمه قبلها وبعدها، ويعرف تفاصيلها الظاهرة كلها.

ترحَّمت على امرأة لم تلمِّح إلى محاولات إغوائها خوفا على رجل تحبّه فقتلها.

نبْلُ زوجة حسن عذّبني أكثر.

حامد تمرمط في بداية هجرته، لكن حظه نقله من حمّال في الميناء إلى صاحب شركات وتوكيلات عالمية وغنى فاحش.

تقول سعاد إنه رجل سعده في قدميه، أما حامد فقال: لا يعرف المرء أن حظه وسعده تحت قدميه حتى يتعثَّر بهما.. وأنا لم أدرك موهبة التاجر فيّ إلا فوق أرصفة الميناء.. عليها تكشّفت أسرار اللعبة وأصول اصطياد الفرص، فالبلد مفتوح على الخليج والمحيط، ومياهه تربط الشرق بالغرب.. ولا تنسَ أن أهل الجزيرة تجار بالفطرة، مارسوا السقاية والوفادة لقوافل الحجيج والتجار وسهّلوا إقامتها قبل الإسلام وبعده!.. فقط تغيّرت الوسائل.. من الإبل والبغال إلى بوارج شحن ضخمة، وانفلت التعامل من الفرس والروم إلى أطياف من ألوان البشر، والوفادة خدمات وتسهيلات وانفتاح فازدهر ميناء دبي بإعادة التصدير.. سفن ترسو وتبحر.. وفي حركة

لا تتوقف تتعثر شحنة فتباع في مزاد علني سريع لئلا تتعطل حركة إفراغ السفن أو تحميلها.

تعلّمت الدرس.

تصيّدْتُ مزادات على بضائع لم يستلمها أصحابها، ماتوا أو ارتحلوا أو قصَّروا عن أثمانها، أو تراكمت غرامات إشغال الرصيف حتى تجاوزت أثمانها وأرباحها فتركها اصحابها، أو صودرت لمخالفة أو تهريب، فتعلن إدارة الجمارك عن بيعها بالظرف المختوم.

لم يكن دخول الميناء ميسورا لولا دعم حامد، حين حوّلت عطاياه بعض المسؤولين والعاملين أتباعاً مخلصين.

بدأت أشتري سمكاً في بحر فلا أحد يعرف ما في الحاويات المغلقة.. والصحيح أن لعبة الحظ هذه دخلت مزاجي.. المراهنة على النجاح تلوّن الحياة بالأمل والتحدّي والانتظار.. تندفع معها إلى المجهول، تقفز إلى أيدٍ خفية لا تعرف هل تتلقّفك وترفعك أم تسقطك فتقع وتتناثر! لكنك تندفع بإصرار، مثل هؤلاء الذين أحب مشاهدتهم على التلفزيون وهم يتسلقون جبالا ليس عليها غير الريح والجليد ورغبة قهرها.. مغامرون يقفزون في منحدر خطير إلى البحار، أو يمشون على حبل فوق جرف سحيق، حياتهم معلقة بمغامرتهم، لا يكسبون غير لذة النجاح .. أما أنا ففي الحاويات مغامرة ونجاح وثروة.

وجدت في بعضها بضائع لا تساوي همّها، علب بلاستيك فارغة، أقمشة غزاها العث، وفي غيرها ملابس أوروبية غالية، وعطور فرنسية، وأحذية وحقائب مقلَّدة لأغلى الماركات، وموادّ غذائية تعلمت تغيير انتهاء

صلاحيتها وأخفيتها. بعْت القليل في السوق المحلّي بالجملة، وأعدت تصدير الكثير إلى أسواق كانت تتوجّه إليها أصلاً.. دول آسيوية وإفريقية لا تدقق في الصلاحية ويسهل رشوة مسؤوليها.. توقفت بعد تشديد الرقابة على الأغذية.. قلت امشِ في السليم تسلم، وأنت غريب فلا تلعب مع القانون، واقبل بالحظ وحده.

المال أسكت البلدة عمّا تعرفه عن الصبي حامد وهو يعود إليها ثرياً.. يشتري المال الجاه والسلطة.. أمعنوا في وصف ما حباه الله من نعم، والله يُعزُّ من يشاء ويذلّ من يشاء، ويرزق من يشاء بغير حساب.

حامد تزوج ابنة رئيس البلدية، وجيه وقادر، بعد طلاقها من ابن عمها وزواج لم يدم شهرين.

وقد شطح خيال النساء والغيرة من عروسٍ جميلةٍ ثرية وابنة جاه، وزواج بهر البلدة بقصص عن طلاقها، كلّ قصة أكثر إثارة من الأخرى: «قضم العريس حلمة صدرها ودشدشها قبل أن ينبو بها عنوة فنزفت وكادت تموت.. ضربها كلّ ليلة حتى يزْرقُّ جسدها ثم ينالها غصباً..أخرج في ليلة زفافها كرباجاً من تحت سريره وطلب أن تجلده، وحين لم تفعل لطمها وضربها فكاد يقضي عليها».. والله أعلم.

تغاضى والدها عن أصل حامد وفصله أمام ثروته ومهر كبير لم تحلم به فتاة بكر، ومؤخر صداقٍ يشتري نصف أراضي البلدة.

زرت حامد بعد زواجه في بيت كقصر على ربوة يطل على البلدة.. أخذْت للعروس هدية معتبرة دفعت فيها ثمناً كبيراً، جوز أساور مبرومة ذهب عيار اثنين وعشرين.

وأنا أرتدي ثياب العيد قالت سعاد: سبحان مغيِّر الأحوال يا ابن عبد الجبّار، كأنك تزور الملك؟.. لم أردّ.

كمن يتهيّب لقائي استقبلني حامد فتحفظت في السلام وخاطبته باحترام كبير، بل تماديت في طمأنته فلم أقترب من معرفتنا القديمة أو ألمِّح إليها.

علمني ابن عمّي حسن أن الإصغاء يجعلك صديقاً للناس، أما الكلام فيفقدك إياهم.. هذه الحكمة نجحت مع حامد.. هو يحدثني عن نجاحه وأنا أكتفي بالإطراء والمديح.

لم يسألني حامد في جلسة طالت عن عائلتي أو حقولنا، ولم يذكر حسن ولا طفله، والوقت يمرّ، وطلبي يتعلّق بجفاف حلقي.

من لحظة صمْتٍ استجمعت قواي وقلت على استحياء إنني أفكر بالهجرة لتأمين تعليم الأولاد في الجامعات، فمحصول الأرض رغم اتساعها لا يكفي، وأطمع في مساعدته لفرصة لي.

اعتدل في جلسته وضحك. وطلب مزيداً من القهوة، واقسم أنه لن يتوانى عن مساعدتي فأنا رجل محترم قصير اللسان يقدّر نجاح الآخرين.

فهمت رسالته.

* * *

خبراتي في الميكانيك هي بداية ثروتي في دبي.

عملت مع والدي في الأرض قبل أن أكتشف هوسي الآخر، ميكانيكا السيارات.. صرت أتبرّع بتصليح أي محرك ولا أتأخر عن طلب يشبع هوايتي هذه، فتقدمت مهاراتي وارتقت من أدوات المنازل إلى

سيارات نقل الخضار وهي تتوقف على الطرق الترابية بين المزارع.. ضحك والدي وأكد افتخاره بقدرتي: « تيسير أبرع ميكانيكي في المنطقة مع أنه تعلّم البيْطرة على حمير النَوَر».

مشكلتي في البلدة ظلّت بين فخذيّ.

تبدأ أمّي نهارها بالهمهمة والتذمر، تغسل فراشي وتدعو لي بالهداية والصبر على شهواتي، أما الحرج الأكبر فظل في الارتعاش والانتصاب كلّما لمحت أنثى مما لا يخفيه بنطلون أو سروال. ثم وقعت حادثة غيّرت حياتي ولم أكمل العشرين، وربَطَت قدري بسعاد.

سماء نهاية الربيع صافية، وحفيف أغصان، وطيور تعود إلى أعشاشها، ومساء يفرد ظلاله على الدنيا فتتدرّج، بدأت أسلّي نفسي بالغناء وأنهي عملا لا أود العودة إليه.. موّالُ شَجنٍ أرْسلُه إلى حبيبة أتخيّلها.. والحرمان من الحب يضفي الشجن على العشق والهوى.. رفعت صوتي أكثر فجفلت أتان مربوطة إلى شجرة وسحبت وجهها من عليقها.. توقّفَت عن المضغ وأمعنَت النظر إليّ.. وعيناها واسعتان كفنجان وتراقبني.. تذكرت أن أجدادي العرب لم يجدوا أجمل من عيون البقر الوحشي يشبهون بها عيون النساء الواسعة.

وإلى يومي هذا لا أعرف أي إغواء دفعني إلى تجربة ما يتندّر به العمال عن ممارسات لبعضهم مع حيواناتهم.

أنَّ الأتان رفستني بينما أحاول ركوبها وطرحتني أرضاً وكسرت قدمي فزعمٌ لم تصدّقه أمّي.. أشاحت ببصرها عني ولعنَتْ شهوات بني آدم. واستعاذ أبي من الخبث والخبائث وقال إن رعونتي لا تخفى عليه، بل تشغل باله وتؤرّقه. ففهمت لماذا يباغتني وجوده في الحقول، ويختلق أسباباً ليظل معي حتى تنصرف الأجيرات.

وهما يتفقان على تزويجي خوفا من زلل وفضيحة بدأت استعرض صبايا القرية ممن برزت نهودهن فلم تمر سعاد بخاطري.. نسيتها. قريبة لأمي لم يلفت انتباهي أي شيء فيها.. نحيلة دقيقة القسمات عادية.. لكن حين لم يذكر والديّ غيرها لم أجرؤ على الاعتراض.

تبدّت حكمة سعاد في استعمال المال في دبي إلا حين يتعلّق الإنفاق بمظهرنا حتى صار كل ما في حاضرنا يشي بالثراء والنعمة.. وحين اطمأنت لصورتنا الباذخة غالت في الحديث عمّا كان ولم يكن من ماضي عائلتي الإقطاعية.

قلت لسعاد: أتعرفين أنّ في السفر سبع فوائد؟

خذلتني ذاكرتي بينما استعرض ما تعلمته من زبون فقيه.. توقفت عند الثالثة منها قلت؛ فيه انفراج الهم والغم؛ وكسْب العيش، وتحصيل العلم.. وتبخّر الباقي.

ضحك ابني الكبير وأكمل؛ وتحصيل الآداب، وتلبية الدعوة، وزيارة الأحباب، وصلة الرحم.

قلت لنفسي: والله عجيب أمر بني آدم، تحتفظ ذاكرته بما يفيده وتشطب الباقي. لهذا بقيت فوائد السفر الثلاثة في عقلي لأنها نفعتني وجرَّبْتُها؛ السفر أفرج غمّي، وهدأ خوفي من انكشاف المستور في حادثة حسن، وأكسبني عيشا أطعمني الشهد.. لهذا سأترك العلم للأولاد، أما أنا فالمجالس مدارس، ومن يخالط العلماء يصير عالما.

سعاد تعرف ما أفكر فيه دائماً.. حديثها طلي مسلّ وتزودني بأخبار العالم والناس.. قصص ومعلومات وأحداث من مجلات لا طاقة لي بقراءتها، ولا وقت لها في انشغالي بالنجاح والمال.

في سنوات هجرتنا الأولى عندما بدأت عملي بكراج لتصليح السيارات، كانت سعاد تنتظر عودتي في أبهى زينة.. تصبر حتى أتخلص من عرقي وعادم السيارات وزيوت التشحيم فتدللني وتبدي رغبتها فيّ. وحين ابتسمت الدنيا بالمال الوفير أصرَّت على أن سخام التشحيم لا يليق بثري ووجيه مثلي، له معاملاته بين التجار وفي البنوك. والمظهر مفتاح للعلاقات والثراء، والوجاهة والمكانة مظهر أولاً. والله يحب أن يرى اثر نعمته على عباده..

اكتفيت بالإدارة وعرفت كفاي طراوة النعمة والثياب الأنيقة والسيارات الغالية.

* * *

سعاد عارضت بشدة فكرة احتضان سفيان من جديد.. قالت الولد تربية ملاجئ، يعني عاش وخالط وعاشر أولاد الحرام وَلَمِ الشوارع، وسيفسد ما بنيناه لمستقبل أبناء يرفعون رؤوسنا فنهرتها بحزم أدهشها فذكّرتها بآياتٍ عمّن يدعّ اليتيم ويقهر المسكين، وأن الأطفال أحباب الله، وعارضت اقتراحها بأن نرسل له مالاً ويظل بعيداً.

لم تفهم خوفي وعجزي عن رفض كفالته فصاحت:

- أمّه عاهرة لم تعرف الشرف؟ ومن أدرانا إن كان أبوه ابن عمك أم ذاك...؟

أخرسها انبثاق الدم من فمها وارتطام رأسها بالحائط، ولكني، وأنا أرفسها بقهري، لم أقل إننا «دفنا السر معاً». وأقسمْت أنها لو مسّت أمه بكلمة في حضوره، أو أشارت يوماً إلى ما حدث في البلدة فهي طالق بالثلاثة.

بدأتُ إجراءات إقامة سفيان في دبي.

والفتى يخرج من المطار كان وجه أمه يتقدّم نحوي فاهتزَّ ثباتي، يشبهها أكثر مما يظهر في صورته، له سكناتها ونظراتها كأنما تربّى في حضنها، ولا شبه مع أبيه حسن عبد الجبّار.

هاجمتني فكرة الحيّة والقرين فارتعشت.. لعل للبشر قرينا مثل الأفاعي.. حتى لو كان قرينها وجاء مقتصا مني سأدجنه.. وقصص مساكنة الناس والأفاعي في سقوف بيوتهم معروفة.. وفي بلدتنا يقولون «محل العقرب لا تقرب، ومحل الحيّة افرش ونام». وأنا سأنام مع سفيان تحت سقف واحد وسأجعله يحبني.

إيداع سفيان دار الأيتام قبل سفرنا من أفكار سعاد.. قالت وجود الطفل معنا سيُبقي الجرح مفتوحاً ويذكّرك بالحادثة.. أما عن يمينك لابن عمّك بأن تراعي طفله ما بقي في جسدك نَفَس، فالمسألة بسيطة.. كفارة حلف اليمين صوم ثلاثة أيام أو إطعام عشرة فقراء، صم أسبوعاً وأطعم عشرين!.. وأنت تعرف أنني بالكاد أخدم أولادنا وأرعاهم، ولسنا من خلّفناه ونسيناه. صحيح أننا أقرب الناس إليه من ناحية أبيه، لكن أهل أمّه أولى به مهما فعلَتْ ابنتهم. ويمكنك أن تمدّهم بالمال بين فترة وأخرى.. هذا لو قبل جدّه مالاً مقابل كفالة لحمه ودمه.. هذا واجب عليه شرعاً وعرفاً.. وشدّدت سعاد على كفالة اليتيم شرعا وعرفاً، بل أسهبت في شرح ترتيب الجد للأم في كفالة يتيم الأبوين وفاقد الجدّين للأب فاقتنعْت. ولم تخْفِ لهجتُها نبرةَ الأمل في ألا يقبل جدّه مالاً.

سدّ العجوز باب الدار بجسده وتحاشى وجه الصغير ولم يسمح بدخولنا.. مسح غزارة دمعه بطرف كمّه وقال إنه لن يرعى حفيداً من صلب رجل ظالم، فلا بد أن دمه فاسد كأبيه.. أثاره تردُّدُنا ووقوفنا فطردنا

وحفيده على صدر سعاد.. لم ينظر إليه ولو مرة.. ثم أردف ودموعه تخنقه وتبلل صدره: قلوب عائلة عبد الجبّار سوداء.. ظلموا صبية غريبة ديار في بلدة لا تعرف ربّها.. وهو مقتنع ببراءة ابنته وعفتها اقتناعه بيوم الدين، وببراءة الذئب من دم يوسف، لكن.. لا برهان عنده ولا دليل.. ولا يريد طفلا يذكّره كلّ لحظة بوردة قريتها، رفضت خيرة شبابها حتى ابن عمها، وقبلت بمتعلم يكبرها فإذا هو شكّاك قاتل.. ولا مكان في بيته وصدره لنسل عائلة لطّخت سمعته بالعار.

وسفيان يدرج نحو الخامسة أدخلناه «دار رعاية الأيتام» قبل أن نهاجر إلى دبي.

يصمُّ صراخه أذنيّ كلما هاجت الذكرى وهو يتشبث بسعاد عند بوابة الملجأ فتسحبه المشرفة، فيتعلّق بصدر سعاد أكثر يحتمي بها.. وجهه الصغير يستنجد بي من أيدٍ تنتزعه منا، نظراته حائرة لا تفهم لماذا وكيف نتركه لهم.. ناداها ماما وأفلت من موظفة الدار ورفض الدخول.. اختفينا وما زالت المشرفة تلاحقه وتلاطفه.. فكيف ومتى استكان؟ أضربوه أم لاطفوه؟

احتميت بالعمل من هواجسي والضمير.. شغلتني الغربة وجمْعُ الثروة عن طفل وحيد، بل تناسيته بتصميم منّي وبتحريض من سعاد، قالت لا يعلم إلا الله ما في الغيب والغربة، وحين نتبيَّن أوضاعنا نبحث عنه، والله لا يضيع يتيماً؟.. وتقسم كلما ناوشني الإحساس بالذنب أن الملجأ للصبي مسألة وقت إلى أن نستقر ونعرف ما يمكننا فعله لنا وله، أمّا أن نتحمّل تبعات تربيته في بداية غربتنا فأولادنا أحق بالدراهم القليلة، و، و، و..

أردت أن أقتنع.

بدأت ثروتي في دبي من كراج صغير لفحص السيارات وتصليحها وتصيُّد مزاد الحاويات ثم بيع قطع السيارات، فمحطة وقود، وأخيرا سوبر ماركت، فجرى المال وانقلب الحال.

- النجاح والمال رضىً من رب العالمين... تُطَمْئِن سعاد نفسها قبلي، وتضيف بلهجة موحية: ولو كنّا من الظالمين لما حرست الملائكة خطونا ووسّعت رزقنا وأعمالنا.

كلانا يعرف أنها تشير إلى الحادثة.

أردت لأبنائي الثلاثة أن يتعلّموا أفضل وأكثر من ابن عمّي حسن، فقرّرت سعاد دراستهم في جامعات غربية، واختارت مدارس خاصة طريقاً لتحقيق أحلامنا فيهم.

منذ انضم سفيان إلينا يافعاً وغادرنا شاباً وهو يتقرّب مني.. إلحاح لا ينقطع لمعرفة التفاصيل عن والديه وأحداث تتعلق بهما.. ادّعيت جهلي حيناً وأعلنت ضيقي أحيانا وإن أراحتني أسئلته عن والديْه زمنا، هي أسئلة من لم يسمع بالحادثة ولا يدري عنها شيئاً.

وأنا كثيراً ناصرت سفيان في عبث أولادي وسخريتهم من جهله برفاهية حياة ينعمون بها.

قال سفيان سأدرس الطب لأعرف سبب موت والديّ، وأعالج الناس من مرض حرمني منهما، فاحترت بأي مرض ماتا؟ قلت هو مرض نادر لا أذكر اسمه.. أما عن توقه إلى البلدة والعودة إليها ليسأل أهلها عن والده فقلت إنني أكره ضيقها وانعدام الفرص والطموح فيها، وسأبيع ما

أملكه هناك فلا نية عندي للعودة إليها أبداً.. لكنني أوكلت لحامد أن يبيع بيت حسن في إحدى زياراته للبلدة، ووضعت ثمنه في حساب بنكي باسم سفيان ضاعفه حامد من ماله الخاص. وجهّزت له عيادة حديثة ودفعت تكاليف زواجه.. لكن سفيان أصرّ على أن يبدأ حياته بعيداً عنا.

4

دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات

المسيح بن مريم

لم أحدّث عمّي بتفاصيل حياتي في دار الرعاية، ولم يسألني، كلّ ما قلته لأولاده إنها مدرسة داخلية صارمة.

تحاشاني أولاده منذ وصلت فاحتملت.. تجاهلت ابتسامات سخريتهم.. تحمّلت غمزهم وملاحظات جرّحتني، عن جهلي بالنظافة والحياة وأكلي ولباسي.

راقبت ما يفعلون فتهامسوا عن غرير يقلّد من تربّوا في النعمة.. لم أقل إن أحداً لم يهتم بتعليمنا، فأنت في ملجأ تنبت وتحيا بعلاّ، وأبناء الأسر في البيوت الصغيرة أو الكبيرة لم يجرّبوا معنى أن تكون «وحدك».

وحاضرٌ في البال حرجي حدّ التعرُق يوم خرجت وأبناء عمّي أوّل مرّة إلى مطعم فاخر بإلحاح من أبيهم.

تردّد خطوي بين إثارة المعرفة والخوف منها وهاجمني الدوار.. تصلَّبْتُ أمام بوفيهات الفندق الفخم لا أدري ما أنتقي بينما اندفع ثلاثتهم

إليها.. ردّدوا في استعراض وتعالٍ أسماء أطعمة غريبة وسألوا في خبث وتحدٍّ إن كنت أريد تجربتها.. يختارون ويتصرفون كأنما المطعم لأبيهم.. أسماء عربية وأجنبية وهندية وصينية، وأسماك ولحوم وحلويات استغرقت مني شهوراً وجهدا لأحفظ بعضها.

أنتقي مثلهم وأقلّد طريقة أكلهم فتغامزوا وضحكوا وجرحني همسهم، احتملت ما يفعلون وازددت إصرارا على التعلّم.

تغيَّرت أحلامي عن الطعام في دبي.. صارت موائد من كلّ لون وطعم.

قلت لنفسي هي الأحلام كأصحابها، جاهلة أو عالمة! جائعة أو شبعانة.

كم عانيت لأعرف؟ الإحساس بدونيّة الجهل يكوي.

مسح عمّي انهمار دموعي.. ربَّت على كتفي فتوقفْتُ عن العويل.. جلس بجانبي على السرير وسألني عما ينقصني، قلت: أن أعرف لأرتاح.

- عن والديْك مرة أخرى؟!. يا بني، لن يفهم الإنسان تصاريف القدر، وحياتنا أقدارٌ مكتوبةٌ، وقدرُك أن تكون يتيماً.. ألم يكن صلوات الله عليه يتيماً؟.. شوف.. من قَبِلَ بقدره استراح، ومن ضيّع عمره وراء الأسئلة تعب. ما يعنيك أن والدك كان خير الناس. وأمك اشرف امرأة.

هزني وصفه لأمي، وخز حاستي الخفيّة وأقعدني عن الأسئلة.

صبّرتني فكرة الإيمان بالأقدار، وأراحني اختلاف البشر وأرزاقهم وأحوالهم بأقدار مرسومة في لوح محفوظ، ولكلّ امرؤ ما سُطِّر له، وما كُتب على جبيني لا بد أن تراه عيناي!

قاومت بالإيمان بالقدر لحظات يأسي والشك.. وبقيت وحدي.

اخترت المستقبل لأنجو من الماضي.. جاهدت لأخرج من لعبة الدهاليز المظلمة.. حياتي في دار الرعاية لعبة سيسو محيّرة. دخْت وضعْت في أنفاقها والتفافها، أخرج من أحدها لأدخل آخر أشد ظلمة، ولن أسمح لأحلامٍ وأوهامٍ أن تدفعني إلى أتون حيرتها من جديد.

تجنبت سعاد الحديث عن والديّ.. كأنما كانت تخشى انزلاق الكلام.

في لحظة عطف نادرة بعد التحاقي بهم بشهور قليلة مسحت على رأسي، وهي من مرّات معدودة دخلتْ فيها سعاد إلى غرفتي.. مدّت منديل ورق فجففت دمعي وما زلْت أتساءل عن تفاصيل لعلها وقعت بين أمّي وأبي.

وصفْتُ لها صورة من ذاكرة مشوَّشة، من ضجيج وعراك وامرأة على الأرض تتلوى وتزحف، وتساءلْت: أليست أمّي؟.. قالت بهدوء: قد تكون أمّك أو مجرد حلم.. كل الأزواج يتعاركون، والبيوت أسرار، فكيف لي أن أعرف؟ ثم .. هل للأحلام حدود؟.

صمتتْ ثم استدركت: ما نعرفه أن أباك أحبّها بجنون، كانت صبية فاتنة وتصغره بكثير.. شعرها غزير ناعم وعيناها واسعتان.. ظلّت تلاعبك في حوش داركم لساعات بينما العيون تتلصّص على جمالها.. النساء قبل الرجال.. ربما لهذا تشاجرا.. والله أعلم!

ثم ابتسمت وأردفت؛ قد يتشاجر المحبّان.. ربّما كان يغار عليها.. اسمع يا سفيان.. أحيانا ما لا نعرفه يريحنا أكثر.. قد تواصل البحث عن أوهامك فتخسر حياتك.

قفز الإحساس الغريب مع كلمات تخفي أكثر مما تبوح.. وحروفها مثقلة بما أتوجّس منه.

وأنا أبحث في معاني ما قالت عن غيرة أبي وجمال أمّي تنبَّهتْ سعاد إلى تحديق مني في وجهها طال، فمسحت على رأسي ثم حضنتني وفاحت رائحة عطرها في بكائي.. كأنما ندمت على زلة لسانها فأردفت:

- لكن هذا لا ينطبق على والديك، المرض والموت أقدارٌ من رب العالمين.. مات والداك بمرض غريب.. أليس هذا ما يقوله عمّك والناس؟

زلزلني السؤال « وماذا ستقول هي لو تكلمت»؟.

تدثرْتُ بالصمْت خشية من امرأة تعرف ولا تبوح، ولها سطوة واسعة على عمّي وأولاده.

طبقَت الباب وخرجَت.. طويلا بكيت قبل أن أندفع إلى الطرقات لأهيم بلا هدف.

يربكني حضور سعاد وتدهشني سطوتها.

امرأة خرجت من مجلّة للأزياء.. تشبه نسوة قادرات من زائرات دور الرعاية.. ثيابها ورائحة عطرها مثل محسنات الملاجئ يصلن إلى الدور في مواكب.

هل كانت أمّي أنيقة وقادرة مثلها؟

بينما تتصفح مجلة اقتربْت منها، وسعاد تدمن قراءة مجلات الموضة والديكور.. سألْتها إن كانت تعرف أقرباء لأمّي؟

- لا أدري إن كان جدّك ما زال حيّاً؟ أجابت دون أن ترفع بصرها.

- لماذا لم ترسلوني إليه بدلا من إيداعي في ملجأ؟.

طبقت المجلّة وردّت بحدّة: ومن قال إننا لم نحاول؟.

بالقهر من جدٍّ نبذني ركضْت إلى غرفتي وانطلق نشيجي.. لحقت بي واستدركت: نسيت.. جدّك مات من سنوات طويلة، ولا أهل لأمّك غيره.. كان فقيراً ومريضاً وعجوزاً، ولا يستطيع العناية بك.. لم يكن أمامنا غير دار الرعاية.. إحضارك معنا منذ البداية مستحيل.

أنا وسؤال يكبر ويمتد ويتجاوز الأفق وحدود الماء.. هل كانت امرأة تتلوّى على الأرض وسط صراخ وخيط كأنه دم وضجّة هي أمّي؟

كثيرا جاهدت لألقي دار الرعاية في هوّة من ذاكرتي سحيقة، اسمها ورفاقها ومعاناتي، أن أبدأ حياة من حاضري أصنعها وحدي.. أسحب قدميّ فوق هضاب الأسئلة لأنجو منها.. أقمْت على أنقاضها عالما لن أسمح لأحد أن يهزّه.. عالم بنيته وحدي، وسأحافظ عليه وحدي.

تبدّلت أحلامي في دبي.. للأمكنة أحلام تشبهها.. بعد شهور؟ سنة؟ أكثر؟! لا أدري.

حلم جديد راود ليالي.. أتقدّم لامتحان لم أستعد له.. التلاميذ منهمكون في الكتابة.. أتلفت.. أطلب المساعدة فيشيحون.. في الورقة أسئلةٌ طلاسم، أقرأ بصوت مسموع لغة لا أفهم منها حرفا رغم أني أتحدّث بها بطلاقة دون أن أفهم ما أقول أو أردّد.. لا أعرف ما تطلبه الأسئلة أو بماذا أجيب.. كتُبٌ مقرّرة لم أفتحها، وأوراق امتحان بيضاء لا يناوشها قلمي.

منذ رأيت عمّي تيسير في صالة المطار تبدّى ضعفه نحوي، اندفع إليّ ثم توقف كأنما تهيَّب من شيء في وجهي.. تفرّس فيه لحظة وتردّد في احتضاني.. في وجهي ما يخيف عمي تيسير.. دائماً.

قبّلت يده وتمنيت لو أرتمي على صدره فردّني تهيُّبي.. سلّم عليّ أولاده بفتور فبدأت التودّد إليهم من لحظتي.

لن أعود إلى الملجأ ولو تشرّدت على أرصفة دبي.

سألت عمي لماذا تركني في ملجأ؟

- لم يكن أمامي غيره حتى نتدبّر أمورنا .. جدّك لأمك عجوز ويحتاج من يخدمه.

- ألم يكن لأمّي أقارب غيره؟

- أمّك وحيدته وهاجر أقاربه من قريته منذ عقود.

- لا أقارب لأبي أو أمّي؟ أية مصادفة جعلتهما مقطوعيْن من شجرة؟ أريد أن أزور البلدة وقرية أمّي لأتأكد!

- أتكذبني يا سفيان؟ وتريدني أن أصرف عليك وعلى أوهامك؟. اسمع ..انتبه لدراستك وإلا ضعت.. وماذا سيقول الناس في البلدة غير ما سمعه المشرف عن سيرة أبيك العطرة وامرأة شريفة مثل أمك؟.يكفي يا سفيان. لماذا لا تصدّق أن الله أخذهما كما يفعل مع الناس كلّهم؟. يا سيدي الأنبياء ماتوا. ارحم نفسك وتعوَّذ من الشيطان الرجيم. مات والداك بمرض غريب متقاربيْن. رحمهما الله وغفر لهما.

قلت في استسلام: سأرتاح لو ذهبْتُ إلى البلدة.. على الأقل أزور قبريهما.

- لا تُشدّ الرّحال لزيارة القبور والأضرحة.. هذا ما يقوله الشيوخ على التلفزيون، اسمع يا بنيّ الروح تبقى والجسد يفنى، وروحهما حولك فادع لهما بالرحمة. سيرتاحان لو هدأتَ وتركْت الظنون. ويوم تتخرّج تذهب بمالك الخاص فتكون الزيارة بركة، وتسأل الناس عنهما كما تشاء.

توقفت عن الأسئلة.

على غير توقع عصفت ليلة مرض عمّي بهدوء روحي بينما أنتظر انتهاء معاملة سفري للدراسة.

عمي ينتفض بالحمّى ويهتزّ جسده.. وأنا حائر لا أدري ما عليّ فعله.. وسعاد في أمريكا تعود ابنها المريض.. دَرَسَ أولاد عمّي الهندسة في جامعاتها.

بين صحوٍ ومنام أيقظني صراخ الهذيان في غرفة عمّي.. ركضت إليه بفزعي.. غادر الطبيب فتركته غافياً بعد حقنتيْن من مسكّن ومضادّ حيوي.. رأيته جالساً وسط سريره الواسع مغمض العينيْن، يهرب برأسه إلى الوراء برعب وبأقصى ما يستطيع، فزعاً من شيء يهاجمه.

أزحت كفيه عن وجهه.. لمح وجهي فصاح في فزع: أنتِ؟

- بل أنا.. سفيان! .. مرغماً أضحكني رعبه.

بسمل وحوقل واستند إلى ظهر السرير وسألني بخوف: عن ماذا هلوست؟

كنت تصرخ وتهرب من شيء يلاحقك.. هدأ ثم روى لي كابوس الحيّة.

ظل جسده يهتز بالحمّى والأنين، وجبهته تلتمع بحبّات عرقه، يتقلّب ممتعضا ومتألما ولا يهدأ. فأقعيت على سجادة بجانب سريره وأسندت ظهري إلى حافته.

أغالب نعاسي والتعب.. والليل طويل.. كأنني غفوت.

سحبني صراخ عمي تيسير من عمق نومي.

ومن اختلاط أنينه والهذيان قطّع الشك نفسي. لجمت رغبتي في الانقضاض عليه وإيقاظه وإجباره على تفسير هلوسات تؤشر على حكاية ترعبني: «دوّختني منذ رأيتها.. اشتهيتها نعم!.. بس بالحلال.. ماتت وعيناها مفتوحتان.. طردنا أبوها.. لم ينظر إليه.. الحيّة لا تتركني.. رميته لأرتاح.. سامحني. سأرعاه مثلهم.»

سأقتله لو تأكّدت ظنوني.

بوهنٍ وضعف استند عمّي إلى باب غرفتي وسأل بقلق: هل هلوست البارحة يا سفيان؟

- كأنما تعتذر لشخص وتريد التكفير عن ذنبك.

- في التجارة والمعاملات تحتاج التكفير والصّيام كلّ يوم لتكفر عما تفعل؟.. قال وابتسم.. ثم استدار ليمضي فترنح وكاد يقع.

اندفعت فأسندته حتى فراشه.. اسودّ وجهه وطغى الكمد على احمرار الحمّى، وأغلق بابه دوني.

قرّرت الصمت حتى أتخرّج ثم أقاطعه.

التقيْت عمّي وحامد مرّتين بعد سفري.. يوم عدت لأنهي معاملاتي بعد تخرّجي وأستعدّ للعمل في غير دبي، فقدّم كلّ منهما مبلغا من المال لأبدأ به حياتي.. ثم في مناسبة زواجي فتصرّف الرجلان بشهامة مع شاب قطّع صلته بهما.. كوالديْن قدّما الكثير من الوقت والرعاية والمال أمام أهل العروس، ودعت سعاد معارفها إلى حفل كبير أقامه عمّي.. ثم لم تسأل بعدها.

احتضنني عمّي يوم زواجي فلم تُذِب حرارة جسده صقيع الشكّ في نفسي.. كبرت الأسئلة في مغالاة اهتمامه بي.. دفعتني إلى أتون الشك من جديد: هل يكفر عن ذنب؟ لكنه لم يحاول استعادتي وحتى بحثت عنه؟ ما مقدار ما يخفي عن موت والدي غير مرضهما الغريب؟ هل أشطح مع أوهامي؟

حيرتني أسئلة طلاسم بلا أجوبة ودفعتني إلى أن أقطّع صلتي به وبعائلته لعلني أستريح، ولم تعرف زوجة أحب أنني لا أجرؤ على مصارحتها بشكوك تعذبني.

5

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾

[آل عمران:6]

باستثناء نادرة، أبحث عن أخوات أربع من أسرة كنت فيها.. ساحت الأسماء وتاهت كما الوجوه.. أسماء زهور؟ أعرف، لكنها تنأى وتختلط ولا أذكر.

يختار مشرفو دور الرعاية أسماء جميلة لأطفالٍ منبوذين، لكني كنت أصغر من إدراك أنها محاولة لإضاءة سواد الحياة بنور الأسماء.. فقط يوم كبرْتُ عرفت أن الملاجئ تختار أسماء أبناء الريح كلّما بعثرتهم على أرصفة الطرق.

وحده وجه نادرة لم يغب في الأيام ولا اسمها. لا لجمالها وحده، بل لأنها مثلي كانت تبكي دائماً.

كثيراً بكينا معاً في تلك الدار الأولى.

اسم نادرة وسنة وجودنا في الدار هما أملي للوصول إلى باقي إخوتي لأتفقّد أحوالهم.

كانت نادرة الأجمل بين الأخوات في أسرتنا الأولى بل في الدار كلها، رغم سوائل وجهها واتساخ ثيابها وبلل فراشها.. بيضاء كحليب.. خصلات

شعرها ذهب تجعَّد وأطَّر وجهها المستدير.. عيناها واسعتان وحجمها صغير.

هل ما زالت تشبه ذاتها؟

لم أغيّر قصّتي وبيروقراطية الوزارة تطوّح بي بين المكاتب، من مكتب الوزيرة وحتى موظّف الأرشيف.. قلت هي ابنة خالة انقطعت صلتي بها فصدّقها بعضهم بغير اكتراث، وتفحّصني آخرون بشكّ ثم ابتسموا في سخرية.. قلت: نادرة ابنة خالتي، أخت أمّي التي ماتت وتركتني طفلا.. كفلني أهلٌ لي في السعودية فتربيت معهم ثم سافرْتُ لدراسة الطب في أمريكا وانقطعت الصلة بيننا، لذا لم أعرف أنها عاشت في ملجأ، وجئت أبحث عنها لأصل الرحم ولواجبها عليّ.

- يعني خالتك؟.. خالتك؟ أخت أمّك؟.. رفع أحدهم عينيه عن أوراق يتفحّصها باستنكار وبما يشبه الازدراء.

- نصف الشقيقة.. أجابت غريزة استشعرت ما يريب.

نكّس رأسه ودمدم: استر على ولايانا يا رب... وتجاهل وجودي وأسئلتي.

كمن يودّ التخلّص من فتاة تجاوزت في كنفهم ربع قرن ساعدوني.. أوصلوني إلى مسؤول الأرشيف وقالوا هو الوحيد القادر على معرفة مصيرها، وأوصوه بي.

قال المسؤول: يمكن لك معرفة مكانها والاتصال بها بعد أن تثبت قرابتك لها، أما عن الباقي فممنوع اطّلاع أي كان على ملفاتهم.

لكن موظف الأرشيف وقف موظّف الأرشيف على باب الوزارة. اندفع إلى سيارتي وابتعدنا.. توقفْت على جانب الطريق وما زال متوجّساً.. راقب الاتجاهات قليلاً حتى اطمأن، ثم أخرج أوراقا مطويّة من جيوبه الكثيرة، صوراً عن ملفات أسرتي الأولى.

نادرة وفراس وعادل وماهر وسفيان وزهرة ومريم وياسمين.. سحب من بينها أوراقاً عليها اسمي وقال: سفيان هذا انقطعت صلته بدار الرعاية والتحق بأهله في دبي.. يمكن الوصول إليه من عنوان عمّه إذا كان على قيد الحياة.. أما ملفات زهرة وياسمين فوجدتها فارغة.. سُحِبَت منها الأوراق كلّها.. وأوضح في غير اكتراث: قد تكون سُرِقت أو سُحِبت لصالح البنات.. يحدث هذا كثيراً لطمس الماضي خاصة قبل الزواج.. أو ربما ضاعت أو سقطت سهواً.. والله أعلم.

تعاملت مع موظف الأرشيف بنظريّة عمّي.. فأسعده مبلغ قدّمته له ولهج بشكري.

* * *

في أوراق نادرة:

نادرة سيف حميد.. تفكّك أسري.. الوالد متوفّى.. العمر خمس سنوات.

أكبرها بشهور فاجتمعنا في الأسرة الأولى.

الأم نزيلة سجن النساء - قضية آداب.

أُدْخِلت الطفلة مع أخويْها إلى دار الرعاية بعد بلاغ من الجيران حول سلوك الأم وتركها لأطفالها ليلاً.. نُقل الأخ الأكبر إلى مبرّة للصبيان..

حُوِّلت الأخت الكبرى إلى دار رعاية الفتيات. بقيت الطفلة نادرة سيف حميد في الدار لعجز أمّها عن إعالتها بعد الإفراج عنها في عفو عام. لم يُعثر على عنوان للأم.. لم يسأل أحد عن نادرة حتى أكملت السنّ القانونية للرعاية.. خرجت من الدار لمطالبة أمّها بها عند بلوغها الثامنة عشرة. عادت إلى الدار بعد أن ناشدت المسؤولين من خلال برنامج البث المباشر لإعادتها إلى الدار وحمايتها.. كما بعثت برسالة إلى معالي الوزيرة تستغيث بها فأعيدت بأمر من معالي الوزيرة إلى دار رعاية الفتيات لعدم توفّر البيئة الصالحة مع أسرتها.. أكملت الثانوية بمعدل 58٪. تعمل حاليا بائعة في متجر إيه بي سي. وتقيم في دار رعاية الفتيات.

في ملفها صورة عن رسالة نادرة إلى الوزيرة وعليها ملاحظة: وصلت مختومة باليد عن طريق السائق محمد توفيق رقم السيارة العمومية 12155

«معالي الوزيرة

أنقذوني وإلا ضعت.. لا أريد لأحد أن يعاني مثلي. أرجوكِ أن تعيديني إلى دار الرعاية. عندكم أمان وحماية لي أكثر من أمّي. إذا تأخرتم سأضيع.

نادرة سيف حميد

ملاحظة أخرى تحت الرسالة:

«بناء على تعليمات معالي الوزيرة سافر المستشار القانوني ومستشارة الوزارة إلى مكان إقامة الأم، وتأكّدا من عدم توفّر البيئة الصالحة لنادرة، مما يشكّل خطرا واضحا على سلوك الفتاة ومستقبلها، أعيدت إلى دار رعاية الفتيات حسب رغبتها».

في ذيل الورقة ختم الوزارة وتوقيعٌ غير مقروء.

قطّة بريّة تتوثب للانقضاض قاستني نادرة بنظرها.. وقفْتُ مع مدير محل إيه بي سي على مسافة منها ننتظر أن تنهي ما بيدها.. من خلف كاونتر خشبي أطالت في إقناع زبونة بتجربة بقميص.. كأنما تعمّدت أن ننتظر.. رمقتنا بطرف عينها في استهجان واستمرّت تشاغل الزبونة وتتجاهلنا.

نادرة لا تشبه ما تخيّلته.. ركّبْتُ قسماتها الطفلة على صبيّة بقامة ممشوقة، وفردْتُ ذهب شعرها فوق كتفيْن شابيْن فلم تشبه منْ أمامي.. فاتني حساب أثر السنين في تغيير الملامح والألوان.

نادرة اليوم أجمل. متحفزة وفاتنة.

كبرت بها الحياة بشكل مغاير.. ظلّت ضئيلة الحجم، نحيلة.. عيناها أكثر اتساعاً.. ابتسامتها ساحرة تفلت غصباً.. شعرها تلوّن بالكستناء هالة تطوّق وجهها المستدير وتحرس حدود كتفيها.

لو عرَفَتْ أني قرأت ملفها هل كانت ستعطيني قصصاً كتبَتْها؟.

انتحينا ركنا خاليا.. اعتذر مدير المحل بعمل وتركنا وما زال يتفحّص وجه نادرة بشكّ، ووجهي بريبة.

- أنا أخوكِ.. قلت.

- العب غيرها يا شاطر.. لي أخ واحد لا تشبهه، وإن كان أزعر مثلك.. قل ما تريد أو ألمّ عليك الناس.

أربكتني البداية.. تمالكْت وأقسمْتُ أنني كنت يوماً أخاها، وكثيراً بكينا معا لأننا نكره الفول.

سادرة في الصمت والماضي البعيد رمشت مرّات ونبت التوجّس في ملامحها فأكملْت:

- كنا أخوة في دار الرعاية قبل أن يفرّقوا الذكور عن الإناث، واسمي سفيان عبد الجبّار، ولا أذكر غير اسمك من بين إخوتنا في الأسرة الأولى، وتعبت كثيراً للوصول إليك.

أنشبت صمتها في وجهي.. ثم بين حيرة ودهشة فرّت إلى الكاونتر وتشاغلت بترتيب البضائع، ولم ترفع بصرها نحوي ولو مرّة.

وضعْت أمامها ورقة فيها اسمي ورقم الموبايل وعنوان مقهى قريب.. قلت وأنا أبتعد: نلتقي في السادسة مساء.

في يأسي من حضورها ناديت النادل فظل مشغولاً.. تركت على الطاولة ساعة انتظار وفنجان قهوة لم أكمله، وكوباً فيه بقايا عصير ليمون بالنعناع وقيمة الحساب حين أطلّت نادرة برفقة امرأة محجّبة تجاوزت الخمسين.

حمدت الله على إهمال النادل وصبري.

ويدي ممدودة في الفراغ لم تصافحني نادرة ولا السيدة.. ألقتا تحيّة مقتضبة ولم تعتذرا عن التأخير.. قدّمت نادرة مرافقتها بأنها مشرفة دار الرعاية، ومن سمحت لها بالخروج وتجاوز موعد إغلاق السكن فشكرْتُ السيدة.

طلبتا شايا بالنعناع.

ردّت نادرة هالة شعرها بحركة من رأسها تلازمها وقطعت الصمت:

- لسْتُ مثل فتيات الدار، ولم أكن يوماً مثلهن، لا في الأسرة الأولى وأنا معك، ولا حتى الآن في السكن.. أنا ابنة شهيد، وأمّي متزوّجة وهاجرت مع أبنائها. وأحبّ أمّي وأتفهم تركها لي في دار الرعاية، أمّي تزوّجت ولا يجوز أن أثقل على زوجها.

متوترة ومندفعة كمن تردّ اتهاما أو تؤكّد لنفسها ما تقول.. وصوتها حاد، وتهزّ كتفيها بالرفض وترفع حاجبيها استنكاراً.

لم تقل نادرة في أي الحروب استشْهد والدها ولم أسأل.. وتوشحت المشرفة بصمتها.

نادتني باسمي وتساءلت: هل تذكر فراس؟ كان معنا في الأسرة الأولى.. يعمل سائق باص.. التقيته صدفة.. عرفني فأنكرت نفسي.. ستتناول البنات سيرتي لو زارني أو اتصل بي.. فراس سمعته بطّالة.

احتارت حين لم أدهش لذكره ولم أسألها عن مكانه فتداركت هفوتي.. سألتها عن خط يعمل عليه وأكّدت أنني سأحاول الوصول إليه.

نفضت شعرها إلى الوراء بعصبية وقالت كمن تحدث نفسها: أتعرف.. أغفر لأمّي.. بل أحبّها.. كان يجب أن تتزوج! لم يكن أمامها غير الزواج لتعيش.

كتمثال وقور ظل وجه المشرفة ونادرة تؤكد أن البنات في الدار يعوّضن حرمانها.. والوزارة توفر لهن المأكل والمسكن:

- ودبّروا لي العمل في إيه بي سي.. وأنت ماذا تفعل؟ أتدري؟ تذكّرتك بعد أن تركت المحل.» صحيح كنا نبكي معاً.. أنا وأنت... وضَحِكتْ.

- أنا طبيب أسنان وأعمل في السعودية.

كذبْت لأقطع أي احتمال للصلة بيننا بعد ذلك.

لمعت عيناها بالإعجاب وشهقت، وابتسمت المشرفة وارتاحت، تفكّرت كأنما تقلب خاطراً ممكنا ونقلت بصرها بيننا.

- غادرْتُ دار الرعاية بعد أن تجاوزت الثانية عشرة.. التحقت بعمّي في دبي حيث ما زال يقيم، فتكفل بتعليمي، ثم عملْتُ في السعودية وتزوجت، وأنتظر طفلتي الأولى بعد شهرين وستولد في أمريكا.

خبا أملها وتوقفت المشرفة عن قياس توافقنا.

- وَلْ.. وَلْ...! صاحت نادرة.. بنت؟ للشقاء!

لم أعقب وتلفعت المشرفة بصمتها.

- وهل عرف أهل زوجتك أنك تربّيت في ملجأ؟

صدمتني مباشرتها فلم أتحسَّب لفجاجة كهذه.

- ومتى كان اليتم عيبا؟

- الناس يحاسبوننا عليه.. قل لي من يتزوّج بنتا من ملجأ؟ كلُهم يظهرون العطف علينا وعلى ظروفنا، ثم يعايروننا بتربية الملاجئ من وراء ظهورنا!. يجوز أن زوجتك وأهلها قبلوا بك لأنك شاب وطبيب.. ثم.. الرجل غير.. شوف، إحدى بنات الدار.. زهرة! أتذكرها؟ من أسرتنا الأولى، أحبّها شاب فكذب على أهله ليتزوّجها.. تمثيليّة شاركت فيها مشرفة الدار وبمعرفة الوزارة.. قالوا «الضرورات تبيح المحظورات». ادّعت المشرفة أنها خالتها، وأن زهرة تربّت في بيتها وبين أولادها، ولأن

أهله يعيشون في مدينة بعيدة لم يكتشفوا خديعة ابنهم.. هل تعرف ماذا حدث بعد الزواج؟ أخذ منها المبلغ المقرّر لزواجها من الوزارة، مئتين وخمسين ديناراً وتحويشتها في صندوق التوفير.. ثم بدأ يهينها ويضربها ويرغمها على خدمة عائلته كلّها، الصغير قبل الكبير، من الفجر وحتى آخر الليل.. يعني أية خادمة من آسيا ستكلّفه أكثر، ولها راتب وملابس وساعات عمل ويوم إجازة وإن أهانها هربت إلى سفارتها وسببت له المشاكل.. أما إذا اشتكت زهرة من معاملة أهله أو تعبها هدّدها بفضح سرّها، وأنه سيدّعي أمام أهله أنه مخدوع مثلهم، ولم يعرف أنها بنت حرام، وأنها ضحكت عليه مع المشرفة.. وصار يضربها حين تتذمر أو تتعب ويعايرها بأنها بدون أصل «وطب الجرّة على تمّها بتطلع البنت لأمها».. ولن يسكت أهله حتى يطلّقها. حتى بعد أن أنجبت طفليْها.. بل سيحرمها منهما.

هل تصدّق أن زهرة لمحتنا في أحد المولات التجارية فأشاحت!.. لحقنا بها وناديناها فلم ترد فاعتقدنا أنها لم تسمع.. سبقناها ووقفنا أمامها لنسلّم عليها.. تجاهلتنا وابتعدت مع زوجها.. كسرنا حرجنا أمام الناس.. أنكرتنا زهرة رغم العشرة والحياة.. كأننا لم نعش عمرنا معاً.. بكل ما في هذا العمر؟ هل تصدِّق؟

لم أقل إنني وأهلي كذبنا مثل زهرة.. زوجتي لا تعرف ولا أهلها عن مرحلة في عمري تخجلني وإن كان سوادها أقلّ مما في حياة زهرة.. ولو أصدقتهم فربما تردّدوا في مصاهرتي.. أنا وعمّي أخجلتنا تربية الملاجئ، فرمي أيتامنا في دور الرعاية لا يليق بعائلة عبد الجبّار.

وقادرة المسافات على طمس الأسرار حين يهيل الاغتراب ترابه على حوادث يتنكّر لها أصحابها.

تدخّلت المشرفة فاشتكت لي بحسرة: نادرة يا دكتور ترفض شاباً ممتازاً.. زميلها في العمل، قل لها إن الزواج ستر.

- لأنه لم يقبل بشروطي.. صاحت بغضب ووقفت.

- شروط ستحرجه مع عائلته وبين أهله.. سحبتها المشرفة من يدها وأجلستها.

- من يخجل من ظروفي لا يناسبني.. لن أبدأ حياتي بالغش. ولن أخرج عروساً إلا من دار رعاية الفتيات. إن لم يقبل فمع السلامة.

وأبعدت غزارة شعرها عن وجهها بعصبية.

- أتعرف يا دكتور أن نادرة تكتب قصصاً وروايات!. والوزارة تحاول مساعدتها على نشرها.. قالت المشرفة.

- بل مجرد خواطر... قاطعتها نادرة بإصرار.. عن الحياة ودور الرعاية.

- هل يمكنني قراءتها؟

- وما دخل الطّب بالأدب؟.. تساءلت وضحكتها مبتسرة متوجّسة.

- على العكس.. كثير من الكتاب الناجحين هم أطباء ممارسين أو تفرّغوا للكتابة.. وأنا عاشق للأدب مثلك... لمن تقرأين؟

- لمن يتوفر.

كأنما طارت أسماء الأدباء من ذاكرتها.. احتارت وارتبكت.. وقفت ومدت يدها تصافحني ومثلها المشرفة.. سألتني عن موعد سفري، وتمنت لي التوفيق.

شعور غامض داهمني بأنني لن أرى نادرة مرّة أخرى.

أخطأ حدسي.

على باب محل إي بي سي انتظرتني وهي تحمل كرّاسة زرقاء.. اتصلْتُ بها قبل سفري المزعوم إلى السعودية بيوم واحد.. قلت إنني أريد توديعها.

أدهشتني لهفتها، وطلبت أن أراها.

- هذا بعض ما كتبت.. لعله يعجبك.

- هل أنشره إن أعجبني؟

- لا.. لا.. ما زال أبطال الحكاية أحياء. جفلَتْ بفزع كأنها صدّقت.

ولم أكن أعني ما أقول، ولا أعرف وسيلة للنشر.. فقط أعلم أن من يكتب يحلم بالنشر دائما.

أنقذني رفضها من ورطة الوعد.

استدرْت فجأة وأنا أبتعد.. كانت نادرة ما تزال في الباب تتابع خطوي.

* * *

مغامرة العودة إلى الماضي فردت شراعها.. أبحرت بي أعمق مما أردت.. وللماضي قدرة الجذب حين تدفعه رياح الحنين فتجلو عنه غبار الزمن.

هزمني إغواء ما تحويه ملفات إخوة لي كانوا، وغمرني الامتنان لموظفٍ قبل رشوتي، ولطريقة عمّي في تسليك الطرق المسدودة إلى أهدافه.

فضول واختلاط عواطف مشوّش وأنا أبحث عن مصائر إخوةٍ كانوا.

كان فراس يطفئ سيجارته بينما أصعد درجات الباص.

تفرّس وجهي بإمعان وتفكّر فتعمّدت إطالة الوقوف أمامه.. مددت يدي بالأجرة فقال وما زال حائرا بوجهي:

- اجلس.. الكومساري سيجمعها.

جلسْت في المقعد الأول.. تابعني.. حدّق طويلا في وجهي من جديد ساهماً.. لعلّه عرفني!. فرحت.

تغيّر فراس.. كثيراً.. مفتول العضلات مع بعض وسامة، وحال حذاؤه المقفل دون رؤية بنصره.

لم تنبئ قامة فراس صغيراً باحتمال طول أو ضخامة.. ظلّ نحيلاً وأميل إلى القصر.

تنبّه لراكب لا يحيد بنظره عنه.. أشعل سيجارة ثانية بنزق، ودقق في ساعته وما زال الركّاب يتقاطرون.

عبّ نفسا عميقاً.. نفثه وفرك سيجارته في المنفضة بعصبية.. استدار فجأة كمن انتوى شيئاً وسألني بغضب:

- هل تعرفني أستاذ؟

- نعم ومن زمان. كنا جيراناً.. أجبت بلا تردّد.

قهقه بهزء وصخب: والله؟! وتقول إنك تعرفني؟ قلْت جيران؟.. جيران أين إن شاء الله؟ أنت تشبّه عليّ أستاذ.. قلت لي جيران.. بالله عليك؟!. جيران!

أدار محرّك الباص وما زال يهزّ رأسه متعجّبا.

بفضول وعدم اكتراث تابع بعض الركاب ما دار.

في كلّ محطّة توقف فيها تابعني فراس في المرآة أمامه وتوقع نزولي، وحين لم أفعل كان يهزّ رأسه متعجباً.. لكن.. حين توقف في المحطة الأخيرة ولم يبق من الركّاب غيري ولم أتحرك، هبَّ نحوي هائجاً.. أمسك بياقة قميصي وجذبني من على المقعد:

- من أنت؟ وماذا تريد؟ طول الطريق وأنت تبحلق في وجهي؟ شو حكايتك؟ من أنت؟ قل وإلا كسّرت رأسك.

- أنا أخوك.. أنت فراس وأنا سفيان.. كنا أخوة في دار الرعاية. أتذكر؟ كنت تحلم دائما بأن تكون سائق باص.

ورائحة إبطيه مزعجة، وصدره عريض وقبضته قويّة.

- سفيان؟!.سفيان؟!. سفيان دبي؟

- الحمد لله أنك تذكرتني.

- أنساك؟! كم واحدٍ منا وجد أهله لأنساك؟

في مقهى قرب موقف الحافلات، وسط ضجيج السائقين وبعد انتهاء عمله التقينا.. التهم ساندويشاً باللحم المشوي وشرب علبة مرطبات، وطلبت شاياً بالنعناع سابقني إليه الذباب فعافته نفسي.. شكر وأطرى رغبتي في الاطمئنان على أحواله، وأكّد أن صلته انقطعت بإخوتنا منذ خرج من الدار.

نفث فراس دخان الشيشة وكثيراً من الذكريات.

استعدنا عدداً من مواقف لنا في الدار تبكي حتى الضحك.. احتجاج لم نعرف أنه مظاهرة.. المشرفون يتسللون بها يصل للدار من عطايا فنلاحقهم بالصفير والقرع على زجاج النوافذ.. مفارقات ليلة الهرب مع يحيى، وتكسير أدوات النجارة والحدادة لنهرب من العمل.

لم يقترب أي منا أبداً من ليلة كسر خزانة المدير أو قراءة الملفات.

ولم أقل لفراس إنني درست طبّ الأسنان، بل قلت: أعمل مسؤولاً عن كراج لتصليح السيارات يملكه عمّي في دبي، وتزوّجت إحدى القريبات، وحياتي بالكاد مستورة ولا أولاد.

استراح فراس وزال توجّسه من اختلاف الحال بيننا.

مسح بقايا الطعام عن فمه وشاربيه بكمّه كما اعتدنا صغارا. قال: يا أخي ملعون أبو الزواج ومن يتزوّج.. يا رجل لم أحتمله أكثر من سنة، والثانية استمرّت لخاطر الوزارة وبضغط منهم.. مرسال وراء مرسال، لي ولها، حتى نحافظ على زواج فاشل من يومه الأول.. أنا وهي مثل شحمة ونار.. لا تطيق رؤيتي ولا أحتمل وجهها ونعيش تحت سقف واحد بل في غرفة واحدة.. يا ابن الحلال، هي لا تفهم معنى بيت أو عائلة، وأنا غير مستعد لخدمتها فقط لأن الورقة بيننا تقول إنني زوج.. طلبات وراء طلبات.. هات هات.. زوج بْرِجْلي بعيد عنك! نادتني الوزيرة وقالت أصبر علشان المحلاّت التي تبرّعت لك.. ماذا نقول للشركات التي أثثت البيت من مجاميعه، ولجمعيات تبرّعت بالاحتفال والصور وحفل الزواج؟ الله يخلّيك لا تفضح الوزارة وتحرجنا.. لا تُفشِل أول مشروع زواج بين اثنيْن من أبناء الدور.. تحمّل من أجل دار لمّتك ورعتك ودبّرت لك دراسة السياقة

استيقَظَت الذكرى من سبات أجبرْتُها عليه.. زمجرت رياحها في قفار الماضي وطوّقتني بحبالها.. حاصرتني الصور ولا فكاك.

عن ماذا يبحث خوفي كلما فكرت بطفلتي القادمة؟ ماذا أريد أن أثبت؟ وعن ماذا أبحث؟ أرتجف وأدعو ربي أن يجنب طفلة لم تولد ما أعرفه وخبرت في تلك الدور.

وحدي مع الكراسة الزرقاء واعترافات ادّعت نادرة أنها خواطر.

6

حراس الأسوار نزعوا عنّي إزاري

نشيد الإنشاد

أينما حللنا وصمونا بـ «عصابة الخمسة».

رشقوها في وجوهنا ولم نكمل أسبوعنا الثاني في مدرسة جديدة فسرقوا فرحة انتقال آخر.. تمرَّدنا بشراسة أشدّ وازددنا كرهاً لكلّ شيء.

منذ وعينا، مع كلّ انتقال نحلم ببداية أفضل، أن نستر اختلافنا ونتجاوز بصداقات وليدة ضيق دائرة أغلقتها الظروف علينا.

بلا غيوم كانت سماء الصيف.. تفاءلنا بمدرسة واسعة في منطقة بعيدة عن دار الرعاية.. ونحن نطامن القلق والتهيّب اندفعنا بالأمل إلى الساحة في يومنا الأول.. كلٌّ تحلم ببداية لا تفضح سرّنا.

في يومنا الرابع، ودون مبالاة أو إحساس بالذنب كشفت ساعية المدرسة سرّنا فحطّمت آمالنا ببداية مختلفة.

أمام مخزن المدرسة اصطُفّ طابور الطالبات لتسلّم الكتب المقرّرة.. وقفنا بنات دار الرعاية في نهايته.. لم نزاحم لنرضي من حولنا.. وفي ضيق وتململ الطالبات واستعجال المعلمات قرعوا جرس الانصراف.. نفرت بعضهن من الطابور، واشتد التزاحم والتدافع عند باب المخزن وتعالت الجلبة.

حاولنا ألا نُغْضب صداقاتٍ تحبو فطال وقوفنا.

صاحت الساعية: بنات دار الرعاية.. بنات المؤسّسة إلى الباص.

جحظت عيون وتساءلت أخرى في دهشة، وتهامست طالبات وتسابقت نظرات في فضول تبحث عمَّن يستجبن لندائها.

خروجنا يعني تحديد الهوية.

تردّدنا ولم نتحرك.. اقتربت الساعية أكثر ونادت: بنات المؤسّسة يستلمن الكتب في الغد.. بسرعة إلى الباص.

حطّم نداؤها آمالنا ولم نكمل أسبوعنا الأول في مدرسة جديدة.

كسيفات انسحبنا.. لاحقتنا العيون وتناثر الهمس عن ملجأ ودور رعاية.. وشوشات نعرف ما تقول وإن لم نسمع.. دمغتنا الساعية بما حاولنا إخفاءه.. تفادتنا الوجوه.. تساءلت ثم أشاحت عنا.

حطَّم انكشاف سرّنا صداقات واعدة لاحت في أيامنا الأولى.. كنا قد تبادلنا أسماءنا وابتساماتٍ متودِّدة حذرة مع زميلات، فأطرقن في نداء الساعية وابتعدن.

مع كلّ انتقال نحلم ببداية مغايرة.. نتمنى ونخاف ونتحسّب.

وتغيير المدارس طقس لازم حياتنا ولوّنها بسواد التوجّس والكره.. ننتقل مرّتين أو ثلاثاً في السنة الواحدة.. ودائماً بعد معركة.

ومعاركنا تنشب لسبب واحد وإن تغيّرت تفاصيلها والوجوه.. تبدأ إحدانا شجاراً أو ملاسنة فنهبّ لنجدتها ظالمة أو مظلومة، بل نحن دائما مظلومات، فلا أحد منهم جرّب قسوة الإحساس بالنبذ، ولا جرْح المشاعر

حين تعرف أنك مرفوض.. يتجنب من حولك وجودك ويتحاشى الهواء لأنه مرَّ بمحاذاتك، غير مرغوب ولا مرحباً بك.. تتودَّد وتمدّ يدك إلى الآخرين فتشيح الوجوه كأنك وباء.. يرفضك من تمدّ له يدك لا لذنب جنيته بل لخطيئة حمّلوك وزرها.

ينكشف سرّنا فتنقلب أيامنا كابوساً.. ندعي المرض فيلقون بنا إلى الباص، غصباً يحملنا إلى المدرسة.. يدفعنا المشرفون إلى أتون التجربة فنكتوي بالذهاب، وساعات الدوام دهور من عذاب.. نهمل الواجب فتتبهدل وتعاقبنا المدرّسات.. نتمرَّد على رفضهم فنوسم بالعدوانية وقلّة التربية، ويتهامسون عن بنات حرام لا يثمر فيهن المعروف.

لم نخطِّط لأيٍّ من معاركنا في أيّة مدرسة.. كلها بدأت فجأة وعلى غير توقّع.. تتهامس طالبتان عَن أحوالنا، تسمع إحدانا أو تلاحظ ما يقال فتردّ بعنف.. أما التعليق من وراء ظهورنا فجزاؤه الضرب وشد الشعر. ولو تجرّأت إحداهنّ ورمت ملاحظتها في وجه إحدانا فلا أقلّ من الفتك بها فنهاجمها بكل الحقد عليها وعلى الدنيا.

في كلّ معاركنا وكل مدرسة أوقعوا اللوم علينا وعاقبونا. قلنا إننا نناصر بعضنا لأننا أخوات، فلم يصدّق أخوَّتنا أحد.

أطلقوا علينا عصابة الخمسة.

على غير توقع احتدمت المعركة في مدرستنا الجديدة، أسرع من سابقاتها وأشدّ عنفا ولم نكمل أسبوعنا الثاني بعد.

خمس فتيات وحيدات في الطرف القصيّ من ساحة المدرسة.. نحن صديقات ذاتنا. نحتمي بالسور من النبذ والتمييز ونتآكل بالقهر. تصاعد حقدنا على أقدارنا وظروف حياتنا ومن يرفضنا.

رأيناها تتأبط زميلتها نحو المقصف وما زالت تضحك.. لمحتنا بجانب السور فلكزت صاحبتها وانفجر ضحكها.. حاولت الأخرى إسكاتها وتحاشت النظر إلينا وحرجها واضح.. فتمادت في ضحكها الصاخب.

تطاير الاحتمال من جلودنا.

في جلبة البيع والشراء وتدافع الطالبات أمام المقصف سحبنا الطالبة وأخرجناها من الطابور.. سألناها عمّا أضحكها وماذا قالت لزميلتها ولم ننتظر جوابها لأننا نعرفه.. نسأل ونضربها ونركل ونصرخ ونشتم.. سال دمها فلم نتوقف.. انتفخت شفتها السفلى .. تلوَّن وجهها بكدمات حقدنا على حالنا والناس والحياة ونضرب بغلّ أكبر.. أينما طالت أيدينا وأرجلنا من جسدها نضرب. خلّصتها المعلّمات والساعية وحارس المدرسة وساقونا إلى غرفة المديرة للتحقيق.

صرخنا بأننا على حق، فردّوا بأننا بلا تربية، متوحّشات وبلا أخلاق، وكدنا نفتك بزميلة.

روينا الواقعة:

والمدرِّسة تشرح لنا قصيدة «الطلاسم»، علت همهمة بين طالبتيْن. تابَعتْهما نظرات الأخريات فارتسمت الحيرة وابتسامات خجلى وتبدّى الحرج فلم تتوقفا.. وبين تعاطف واستنكار حاصَرَتْنا النظرات واختنق الجوّ بالتوتُّر. غضّت المدرّسة بصرها. أطرقت ولم تلتفت نحونا ولو مرّة وسارعت لتنهي الشرح.. تبادلت الزميلات ابتسامات لئيمة فبدأنا نثور.. وكلمات إيليا أبو ماضي موجعة تقطِّع احتمالنا.. والشاعر يتساءل بلسان حالنا «كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري!». والمعلّمة لم

تبتسم كعادتها حين تشرح، وكل ما حولنا يشي بسرّنا والطالبة لا تتوقف عن الهمس.. لم يفتنا حرج رفيقتها ولا محاولتها إسكاتها، لهذا لم ننتقم منها ولم نعاقبها، وحين سحبناها من طابور المقصف سألناها عمّا همست به فقالت: رويْت لها قصة فيلم قديم شاهدته بالأسود والأبيض، ولا سيّما مشهد شاب يكتشف فجأة أنه لقيط، فغنى المطرب عبد الحليم حافظ هذه القصيدة وهو يقوم بدوره.

لدغتنا كلمة «لقيط» فقلنا: بل نحن يتيمات، وأمهاتنا أشرف من أمّك وكلّ بنات ونساء عائلتك ومن خلّفوك، فتعاركنا.

لم نقل في التحقيق إن زهرة ومريم مجهولتا النسب وهما من بدأ المعركة وسحبتا الطالبة من أمام المقصف، وكانتا الأكثر شراسة وحقدا عليها.. أمسكَت زهرة بشعرها ودفعتها أرضا وشتمت أمّها، وخرمشت مريم وجهها وضربتها بجنون. قاومت الفتاة وكادت تغلبهما، فهجمنا بفزعة الغضب لنجدتهما والثأر منها.

طردونا من المدرسة وتوسّطت الوزارة لتسحب عائلة الطالبة شكواها من المخفر، فتنازلوا «تقديراً لحساسية أوضاعنا».

نقلونا إلى مدرسة جديدة وأطلقوا علينا «عصابة الخمسة».

قدرُنا أن نصادق الزوايا ونحتمي بالجدران.

* * *

تغويني كرّاسة نادرة أكثر.

« ياسمين» ... قصة بقلم نادرة سيف حميد.

بلغة جميلة سردت نادرة قصتها الثانية.. بدت فيها كاتبة متمرّسة أكثر منها في عصابة الخمسة!

يصقل الألم أحاسيس البشر حتى الرهافة.. فحين ترفض النفوس ما يعتصرها فتشفُّ وتسمو ثم تبدع لحنا أو كلمة أو صورة.

وأجمل الأفكار ما ارتوى من شجنٍ وحزن وشغف.

كتبت نادرة:

ولد توأمّي الحزن يوم عادوا بوالدي شهيدا.. هذا ما قالته أمّي والناس في قريتنا.. تملَّك الفخر عائلتنا الصغيرة شهوراً، فليس بين جميع من نعرف من له والد شهيد مثلنا.

بعد شهور من استشهاد والدي انقلب الحال.. جلّل الأسى أمّي ولفعتها الهموم.. كسرها حزنها والعجز عن حاجات بسيطة، بدأت تقلّب كفيها لطلباتنا وتبكي فنسكت ونحزن مثلها.. توقفنا عن الطلب.. صرنا نحتاج فنتألم ونسكت بينما يبكي صمتنا.. نشتاق أبي ونبكي فقالوا بكاؤنا يعذِّب الميت في قبره فسكتنا ليرتاح.. يصرُّون على أن نفرح لأن الشهيد حبيب الله، والشهيد في السماء فيتساءل صمتنا كيف لم تقدِّر السماوات أننا نحبّ الشهيد ونحتاجه أكثر منها؟ وأن وجوده في بيتنا الصغير أنفع لنا من بقائه هناك؟

لو عرفت السماء معنى الحاجة.. أن تشرّد عائلة وأن نعيش أيتاماً في ملجأ، هل كانت تأخذه منا؟

تعالى الهمْس حولنا فوصلنا، أمّي وأخي وأختي وأنا الصغرى بينهم.. بكت أمّي وبكينا معها.. طاردتنا ابتسامات الرثاء ونظرات العطف كلّما فاخرنا أو حتى ألمحنا إلى شهادة أبي.. لم نفهم.. بدأنا نقطع جمل الاعتزاز باستشهاده ولا نكمل.. صمتنا في عدم اكتراث من حولنا بمفاخرتنا به.. كأنهم لا يصدّقون؟! قرأنا هذا في عيونهم.. شيء ما تغيّر في حكاية شهيد زغردت النساء لموته، ورافقتْه أهازيج وطلقات نار أكّدت أن موته مختلف.. ورغم أن فقده بعثر عائلة، وأرغم زوجة شابة على ترك أطفالها الثلاثة في ملجأ للأيتام يصرّ من نعرف على أنه حبيب الله لأنه تركنا ومضى!

أذكر أبي، شاباً مقبلاً على الحياة ويحبّنا، ويعشق أمّي.. أذكره يلاحقها ويدفعها إلى الغرفة الأخرى بينما تتمنع بدلال.

كيف استُشْهد والدي؟ وفي أي حرب؟

تهامس الناس عن نيران صديقة قتلت أبي.. ثم شرحوا لأمّي الحكاية قالوا طاشت رصاصة أثناء مناورات وتدريبات مع زملاء سلاحه فقتلته.

جرّحتنا نظرات الرثاء في عيون الناس.. رفضنا أن نصدّق ما يقولون.. موت والدي بسلاح عدوّ أكثر فخرا من أن يمرّ به الموت خطأ برصاصة زميل.

بكينا أكثر وانزوينا.

رسالةٌ رسميّة وصلت إلى أمّي.. وصفوا فيها والدي بشهيد الواجب، وحدّدوا لنا راتبا لم يكفِ الأيام الأولى من كلّ شهر.

أبحرت لياليا في الضيق وأقلعت فوق فضاء الحرمان.

تبكي أمّي معنا.. دائماً.

أنا ياسمين أصغر اخوتي.

كان فجراً والقرية نائمة.. سحبتنا أمّي من فراشنا مع خيوط الضوء.. لاحقنا نباح الكلاب فارتعدنا.. تحثنا أمّي على الإسراع فيتثاقل خطونا.. تغطّي وجهها وتأمرنا ألا نتذمّر فنسكت.. نبكي.. تنهرنا فنسكت.

ارتحلنا إلى حيث لا نعرف أحداً.

منذ ذلك اليوم وأنا أسكت.. كلّما أمرني أحدهم بشيء اسكت ثم أطعتهم كلّهم.. أمّي والمدرّسات ومشرفات الدار.. لم يعرف أحد أنني أسكت لأن صوتي لا يطيعني فلا يخرج.. وحين أعجز عن الردّ أو الرفض أسكت وأبكي.. أبكي حين أحزن وحين أجوع أو أشتاق أسرتي.. أسكت وأبكي.

بكّاءة كنت وحتى يوم واقعة المشرفة وليلة تحرّرت فيها من عجزي.. كسر صوتي قيوده وثار. وتمرّدت أوتاري على أصفادها فدوّى صراخي وهو يرفض استغلال صمتي.

رافقت الصمت منذ تركتنا أمّي لغرباء ومضت... لم أصدّق أنها تتخلّى عنا وتختفي مع رجل وامرأة في لباس العسكر ولم تلتفت لصياحنا.. غابت.. خائفة كانت أمّي مستسلمة، حائرة وعاجزة.. رأيت حزنها.. حزنٌ لم يبْقِها لنا ولم يأخذنا معها.. تركتنا ومضت في سيارة مغلقة، فضاع صوت بكائي وتوسّلي كي تعود.

غمسوا اصبع أمّي في علبة صغيرة وضغطوه على أوراق كثيرة.. وأنا وأخي وأختي نراقب في دهشة، تعلّقْتُ بثوبها.. عاملها الغرباء بقسوة

وبغير احترام فاحتملت في دهشتنا.. ولم أفهم يومها أن أمّي تبصم ولا تكتب.. بكت أمّي ثم دفعت بنا إلى الرجال الغرباء وغابت.. نادينا فلم تعد.. صرخنا وتمرّغنا على الأرض فلم يلتفت إلينا أحد.. جرّونا إلى سيّارة فلم يكترث سائقها لبكائنا.

كأنه اعتاد رؤية ما نفعل؟!

توقف أمام باب حديدي كبير.. أخذ ورقة من على المقعد بجانبه وسحب أختي من ذراعها فرفضت وقاومت ثم استسلمت. ردّني بعنف إلى داخل السيّارة حين تعلقْتُ بثوبها.. طبق الباب وما زلت أصرخ وأناديها.. تهجّأ أخي لوحة فوق باب غابت أختي خلفه: «دار رعاية الفتيات».

احتميت بأخي من خوفي والسائق يتوقف من جديد.. سحب ورقة من على المقعد ونزل وفتح الباب.. لم نعرف أيّاً منا سيأخذ، وأخي مثلي كان خائفا. ضمّني إلى صدره وبكى بصمت.. انتزعني السائق من حضن أخي متأففا.. وكفه خشنة قاسية.. سمعت بكاء أخي .. حملني مع الورقة وما زلت أصرخ وأرفسه.

سلّمني لمديرة الدار ومضى.

هدّدتني المشرفة بعصا رفيعة بعد أن طال صراخي والبكاء، أفلت من المشرفة وأركض نحو الباب وأتمرغ على الأرض.. رأيت أطفالاً مثلي يتحلّقون حولنا ويراقبون بكائي وما أفعل.. سكت.

لم أجتمع بأخويّ وحتى يوم استعادتني فيه أمّي.

سنوات كالدهر نسيتني فيها أمّي.. وحدي أتنقل بين دور الرعاية.. تبدّلت أمّهات وأخوات في الدور وأنا وحدي.

بلا إنذارٍ جاءت أمي... ضمّتني وقالت إنها لم تكن تستطيع الخروج لزيارتنا رغم حرقتها، قسا الزمان عليها وعلينا فلم أفهم.. بل لم أتصوّر مكانا يمنع الأمّ من زيارة أولادها.

رأيت أمّي بعد غياب فتبلّدت.. وجمت في تناقض مشاعري واضطرابها.. هل أحبّها أم أكرهها؟ أصالحها أم أستمر في غضبي؟

بقاؤها القصير لم يسمح بتحديد عواطفي. اعتذرتْ لي أمّي عن ضيق الحال وقالت إنها مجبرة على تركي في الملجأ ولم تمكث طويلا، اسرعت بالخروج لتزور أخويّ في الملاجىء الأخرى.

أنا وصمتي كبرنا معاً.

لم أصدّق أن أمّي طلبت استردادي من دار الرعاية بعد سنوات طويلة.. اشتقت إليها كطفل ضال وفرحت لذراعيها الممدودتين وكنت اعتقدت أنها نسيتني.. صهلت سعادتي إذ حسَبَت أمّي الأيام وعمري.. ثمانية عشرة عاما وهي تعد لياليّ وحين اكتملت استرجعتني.

غيوم الشك ظلّلت مساحة فرحي لأنني على أبواب عام دراسي.. خشيت الانتقال إلى مدرسة وبيئة جديدة بينما أستعد للثانوية العامة.

تفهّمت مديرة الدار رجائي وتخوّفي فخاطبت الوزارة لإبقائي في جو اعتدت عليه حتى نهاية العام الدراسي لأنجح.

وقفت أنا والقانون في مجابهة غير عادلة.

قلّبت المديرة كفيّها وقالت: بقاء الأولاد في الدور بعد الثامنة عشرة ولو يوماً واحدا ضد القانون.. منتصف العام الدراسيّ أو أوّله أو آخره لا

يهمّ.. وفي جميع الأحوال كنت سأخرج حين أتمّ الثامنة عشرة، مع أمّي أو بدونها، والأفضل التحاقي بأمي من بداية العام لا في منتصفه فقانون الدور يسري عليّ وعلى غيري.. ومن الأفضل أن أبدأ العام برعاية أمّي وأتكيّف مع بيئتي ومدرستي الجديدة .

وأمّي تتفحص وجهي بإعجاب ولهفة فرحت.. أمّي جميلة لم تغيّرها الأيام إلا قليلا.. أدهشتني عنايتها بلباسها وشعرها ورائحتها.. أخذت يدي بين كفيها وطبطت عليها والحافلة تهتز بنا في الطريق إلى بيتها. قالت: لم أعرف أنك ستكونين حلوة هكذا.. أجمل من أختك بكثير.. انتظرت أن تكبري لكن لم أتصوّر أن تكوني بهذا الجمال.

أفرحني إطراؤها فاندفعت إليها فتلقفني دفء حضنها.

بيت أمّي صالون وثلاث غرف للنوم ومطبخ.. عادي.. أجمل وأوسع ممّا توقعت فانقبضت نفسي.. لماذا تركتني أمّي في دار الرعاية ما دام لي مكان في بيتها؟

حزنت ولكني لم أسأل.

تغيّرت أختي كثيراً.. شيء في هيئتها لم أحدده غريب سمّرني وهي تحضنني وتقبّلني بشوق ولهفة.

وأزعجتني تعبيرات أخي الفجّة وهو يعانقني ويطري جمالي.

لم أصدّق ما يحدث في يومنا الثاني. استعداد لضيوف، تزينت أختي لجلسة أنسٍ بدأت، وأمّي تجالس الرجال وأختي ترقص في دلال ومجون دار أخي بالمشروب والطعام بينما يغيّر الموسيقى.. كانوا أربعة رجال بينهم عسكري دلّت نياشينه على رتبة عالية.

اندفعت إلى العسكريّ وصحت به: أمّي زوجة شهيد! وأنت آخر من يسيء لذكرى زميل.. فكيف تنتهك حرمة بيته؟

قهقه وردّ: وأنا شهيد أختك.. وأموت على قدميها..

ارتمت أختي في حضنه بغنج.. وتعالى صخب الآخرين.

هربْت فلم يلحق بي أحد.

فوق سطح يرتجّ بضحكهم تناثرت أشلائي.. وليلي ينتظر صباحه المهاجر تمزّقت بخيالات الحقد وانكساري.

على طرف السرير جلس أخي.. طأطأ وفرك راحتيه وهمس: ياسمين لولا شغل أمّك وأختك لمتنا من الجوع.. لا تظني أني قصّرت أو لم أحاول لكن الدنيا قست علينا. أكثر ممّا تتصوّرين..عملت صبيّ نجّار ثم حدّاد، ولن تتخيّلي ما حدث.. الأول ضربني فكدت أموت.. سحب ذراعي تحت المنشار ليقطع يدي لأني نشرت لوحيْ خشب على مقاس غلط فخلّصني عمّاله.. أمّا الحدّاد فبدأ يقف ورائي بحجّة أنه يعلّمني ويتحرّش بي، رفضت وتملّصت فضربني على رأسي وظلّ ملتصقا بظهري.. يفعل هذا مع كل صبيّ عنده.. هربت. لم نجد اللقمة.. جعنا وتبهدلنا، ومعاش المرحوم لا يكفينا اياماً. بدأت أمّي تخرج ليلا بحجج مختلفة.. كنت أعرف ما تفعل فأموت قهراً وخوفاً عليها حتى تعود.. قلت يا ولد على الأقل تشتغل في الدار أمام عينيك فتحميها وتردّ عنها الخطر. لم أجد حلاّ غيره.. أمّا أختك فلم أغصبها أو أضغط عليها.. اختارت الشغل مع أمّها برضاها.. اسألي‍ها.. وهي تحب الصنعة، بلا تعب ودخلها مريح، وزدنا عليها ربح السهرات والأكل والمشروب.. شوفي.. أنا لا أظلم أحدا.. أختك تأخذ نصيبها وتضعه في حسابها في البنك. وسأعاملك مثلها.

والدهشة تخرس لساني أكمل: اسمعي، واجب الضيافة ثلاثة أيام وانتهت. واليد البطّالة عاطلة. وأنتِ أحلى من أمّك وأختك، ريّلوا عليك الزبائن ويمكن أن تغيّري حالنا.. المهم، ألا تكوني قد فرَّطت بنفسك.

هجمْت عليه وصفعته وشددْت شعره. وأنكرت أنه بشر. ولعنت بطنا حملته وأنجبته فاسداً مثلها.. تذكَّرت كلمة ديّوث من درس الدين فلم يفهم شتيمتي وإن فضح بريق عينيه سعادته بثورة أكّدت عذريتي.

منع أخي الطعام عني.. وجرّتني أمّي لأجالس زبائنها فتملّصت.. وحاولت أختي إقناعي بالدخول إليهم لأتسلّى فصمد رفضي.

وقفت أختي تتفقد قوامها في المرآة أمامي بإعجاب..استدارت مرات وهي تشفط بطنها أكثر وأطرت قوامها بدلال، مرّرت كفيها على صدرها وخصرها النحيل وردفيها بانبهار وسألتني: هل تتصورين هذا الجمال وهو يمسح البلاط وينظف مطابخ وحمامات الناس؟ أو أن أضيّع نور عينيّ وجمالها وأنا أخيط فساتين للناس لا أستطيع شراء واحد منها؟.. شوفي أنا لا أحتمل التحرّش في الأسواق، ولا مرمطة التنقل بالباصات، ولا الاستغلال والبهدلة في مشاغل الخياطة وهو كل ما تعلّمته في دار الرعاية.. أما شغلي هذا ففي بيتنا.. ربما كان مرمطة لكن مستورة ومدفوعة، ومتعة وفرفشة ومعرفة رجال قادرين على حمايتنا بنفوذهم.

سحبتها من شعرها ومسحت أصباغ وجهها وشتمتها وتعاركنا.. قلت إنها حيوانة وبلا إحساس، فأوقعتني أرضا وركلتني وصاحت: أتريدين أن أصدّق أن أحدهم لم يفعل هذا معك في أيّ من الدور؟

صرخت مستنكرة رافضة ما تقول.

بكت أختي.. جلست على طرف السرير.. غطّت عينيها وقالت إنها لا تفعل أكثر مما فعله الحراس وأصدقاؤهم بها وببنات الدار.. أحضروا الغرباء ليلاً وأجبرونا على النوم معهم، ومن ترفض يتهمونها بالسرقة أو محاولة الهرب ويعايرونها بأمها.

قلت إنها تكذب لتبرر ما تفعل.. هربت وأقعيْت على السطح أراقب ولا أصدّق. ضحك ومجون ولهاث وكلمات بذيئة تصف أمّي وأختي، وأخي يشارك بشتائم فاضحة ونكات مكشوفة ويقبض الثمن!

أنا والنجوم وخشونة السطح.. تراجعْت عن القفز مرات. ردّني التهيّب عنه وخوفي من الموت .. هدّني تعبي.

أيقظني أخي، سحبني من شعري قال: لا أنت أحسن من أمّك ولا أختك.. ولا من بنات جامعات ينافسن أمّك وأختك على الصنعة.

أخفيت وجهي بكفيّ وبدأت العويل. قال: اسمعي يا بنت الناس.. أنت وجه جديد، والجديد مرغوب.. سأختار لك الزبون الأول جيبه ساخن ويقدّر الجمال وبمبلغ محترم يكون خميرة لتحويشتك.

ضربته وضربني، خرمشْت وجهه فطرحني ورفس بطني وصرخ: أنا مش فاتحها تكيّة للعاطلات، ولا أنا شؤون اجتماعية.. أكل ومرعى وقلة صنعة. لا!. إنْ عملْت أكلْت وإلا!

تدخّلت أمّي.. رجته أن يتركني إلى أن أنسى كلاماً فارغاً علّموه لنا في الملاجىء.. عن شرف لا يعرفه كثير ممن يزايدون به علينا: وتعالي شوفي الكبار في سهراتنا.. شنبات ورؤوس ولحىً لا يعرف حقيقتها غيرنا.. لكنهم يزايدون بالشرف عندما يخرجون.. شرفهم كلام لن يطعمك حتى الرغيف الحاف.

أردفت أمّي بهدوء لتقنعني: يا هبلة. انبسطي وخذي فلوس.. أنا جبتكم الثلاثة وأنا صغيرة مش فاهمة وبالفقر وبدون انبساط.. أبوك كان لحاله ينبسط ويقوم، وعمره ما سأل عن انبساطي.. ينبسط لحاله وببلاش!. ويوم مات طمع فيّ الأقارب قبل الأغراب. كلّ منهم حاول استهبالي والضحك علي بالحب.. قلت لا، الحب ببلاش لا. بدأت أحب حالي وانبساطي.. يعني شباب المرأة منا كم سنة تظل فيه مرغوبة وتكسب؟ وأنا لا يهمّني في الزبون غير جيبه إلا إذا أعجبني.. شوفي إن أحببْت شكله أتخيّل أني أحبه، فأسلّمه جسدي وإحساسي.. أنبسط معه وهو مثلي ينبسط لكنه يدفع.. ليس في الدنيا ألذّ من الحب.. لا شيء يعادل ملامسة رجل تحبينه.. شوفي. في صنعتنا الضحك على الرجل سهل، أشعريه أنه خيّال وأنت مهرة. عقول الرجال بين رجليهم، ومفتاح أي واحد فيهم هناك مهما كبر وعلا شأنه.

شتمْتُ أمّي.. بكيْت وضربتها. حاوَلَت أن تلمّ هياجي في صدرها. هربت وقلت أنت حيوانة فضحكت وقالت وأنت غبيّة.. أي بنت تنكر حاجات جسمها هبلة.. هذه طبيعة خلقها ربّنا فينا. يعني نقول له لا ونرفض؟ الحب بين الرجل والمرأة يجلو روحها ويجدّد شبابها. يشطفها فتظل زاهية وحلوة.

- ما تفعلينه قذارة وليس حباً.

لم تلتفت لصياحي وأكملت بأن قذفت السؤال في وجهي قاسياً.

- وبعدين! من سيقبل بك وأمّك وأختك....؟ وأنت تربية ملاجىء.. ستكبرين ويضيع عمرك بدون لمسة من يد رجل.. ولن ينفعك الكلام عن الشرف وما علّموه لك في الملجأ والمدرسة.. ونصفهم لا يعرفه.. اسأليني عن الناس.. كل واحد بوجهين.. خسارة أن يمضي عمرك دون أن تستمتعي

مع رجل! بالزواج؟ مستحيل.. من يتزوّج واحدة مثلك؟ ثم اسألي نفسك.. لماذا خلق الله ذكرا وأنثى وليس جنسا واحدا؟ فكّري. أليس للحب؟ وهل الحب بدون جسد؟ بل لماذا خلق الله المرأة لآدم أصلا؟ طبعا ليستمتع بها وتتمتّع به.. يعني كان في أيامهم زواج؟ لا.. كان الحب والشهوة وبس.. خلاص. اشتغلي معنا ومتّعي نفسك، وزيادة اقبضي وأمّني مستقبلك.

- أتعرفين معنى أن أقبل؟ سأصبح صورة عنك وعنها.. ياسمين معفن ساقط وكريه.. وأنا وردة طاهرة نبتت بين أشواك، ولن أسمح للشوك أن يجرّحني.

- ومن سيصرف على الوردة ؟ وكيف ستعيش الطاهرة بنت الشريفة؟ دكتورة اسم الله والوظيفة جاهزة؟

رفستني بقدمها وقامت فاحتميتُ بعويلي.

لم أخبر أمّي عن تجارب في الدار جرّحتني، ولم تسأل.

ليلة حقدت فيها على الجسد وما زلت.. فكّرت فيها بالهرب من دار الرعاية فردّني خوفي.. ليلة كرهت فيها غريزة متوحّشة تسيطر على صاحبها وتجمح به وتُغيِّب عقله.

سقطَت بثقلها فوقي وكلّنا نيام فأيقظني ذعري.. صدمني ما يحدث وأخرسني. وطأني جسدها وبدأت تحكُه بجسمي.. ولهاثها يعلو.. شُلّ عقلي وجسدي ولعاب شهوتها يبلّل وجهي ويثير اشمئزازي.. يدها تفرك بروز صدري، تحاول الوصول إليه فتردُّها ثيابي. يشتدُ لهاثها ويتنامى الألم. كتم كفها محاولات صراخي.. وانسلّت يدها الأخرى بين ساقيّ فأطبقتهما عليها. جاهَدَتْ لتسحبها حين انطلق بكائي. بحرقة عجزي عن الصراخ

بكيت. تمادى جسدها في الاحتكاك بجسمي فانطلق صراخي من عقال الخوف والمفاجأة. متصلاً عالياً.

قفزَتْ من فوقي وما زالت الفتيات في العنبر يحاولن فهم ما حدث بين صحو ونوم.

طردوا المشرفة.. يلازمني الغثيان حين أتذكر، وقليلاً نسيت.

تستفزُني رغبة تتحكم بالبشر. جموح أجساد ألقت بكلّ هذا البؤس حولي. متعة مسروقة أو مغتصبة زرعت الحيرة والألم والضياع في نفوس من حولي.

قالت أمّي ملاطفة: ياسمين. كنت حكّاءة من يوم يومك وفيلسوفة.. لكن الدنيا ثقيلة علينا.. لم يكن أمامي غير ضربها بحذاء عتيق، هي ومن عليها. وماذا أعمل؟ خدّامة في بيوت الناس بقروش؟ شوفي.. الكلام سهل لكن الحاجة وسخة.. الحاجة مرمطة وبهدلة. وأنا تركتك في الملجأ حتى تكبري وتساعدينا.

- لن أفعل ولو مت.

أغرقْتُها بمواعظ عن الشرف والدين فصاحت: فلقتيني.. من يوم يومك وأنت فيلسوفة وبيّاعة كلام لن يطعمك خبزاً.

في لحظة نادرة منذ عودتي جلّل الفرح قسمات أمّي. هدأت ونظرت إلى البعيد. سحبت من خيالاتها ما أشرق به وجهها.. ضَحِكَت وقالت:

- من صغرك وأنت تحبّين الكلام ولا تتوقفين عن الحكي.. كنا نفرح ونقول شاطرة وملسونة.. حتى جارنا في الكرم.. أبو مصطفى.. صار

عجوزاً وما زال يذكرك. التقيته في السوق مرّة فسأل عنك دون أخويْك.. وأقسم على أنه لو ظلّ في عمري بقية وأم مصطفى حيّة، لأخذت ابنتك الصغرى وربّيتها وكسبت الأجر.. أتذكرينه؟ جارنا أبو مصطفى؟!. كان يصرّ على اللعب معك كلّ يوم. يناديني ويقول أعطني الصغيرة لأتسلّى معها. ولا يقبل إلا بك ويقول هذه البنت شاطرة وحكّاءة.. مسكين كنت أشفق عليه.. عاش مع زوجته عمره كلّه بلا خلفة.

- أيُّ جار؟

- أبو مصطفى ! هل نسيت؟! الختيار جارنا.. لم يكن له أولاد ولكنهم يسمّونه أبو مصطفى.. ظل يتضمّن الكرم الواسع بجانب دارنا كلّ صيف، ويعيش في حجرة صغيرة في وسطه مع زوجته، والكرم يطرح محصولا ما شاء الله، زيتون وعنب ولوز وتوت وخوخ ومشمش وسمّاق.. يعتني به من نهاية الربيع وحتى بداية الشتاء.. يعود كلّ عصر مع زوجته بعد بيْع المحصول، فتنشغل أم مصطفى بالخَبْز والطبخ والتنظيف. يناديني ويطلب أن أرسلك إليهما. لم يكن يقبل بغيرك. يقول هذه البنت شاطرة وحكّاءة وتسلّيني. وتحلف أم مصطفى أنه يلاعبك وهو يضحك كأن أحداً يدغدغه، وتظلّين في حضنه بالساعات، وحين تسأله زوجته عن كل هذا الضحك والمرح مع طفلة، يخبرها عن قصص وحكايات تؤلّفينها له بكلامك الحلو.. وفي كلّ مرّة تعودين بفاكهة وملبّس وخبز على الصاج.

- هل كان يلبس عباءة ويغطي رأسه؟.. صرخت وأنا أستعيد ملامح وجهه من حلم بعيد.

- هل تذكرته؟.. فرحت أمّي وتحسّرت على نعم الجار.

- يلعن أبو أبوه.

أذهلتها صرختي.. لامت شتيمتي لرجل صالح كان يحبُّني ويدلّلني، ويغدق علينا ممّا ينتجه كرمه.

أمعنْتُ في سبِّه فتفكَّرت أمّي في دهشة، ماتت أسئلتها على شفتيها وهي تتفرّس وجهي ثم صمتت، ولم تعد لذكره حتى تركتها.

احتميْت بصمتي من حلم حيّر طفولتي.. هو المجهول في حلم طفولتي الأبعد.. جارنا العجوز.. وجه حيّرني لأنني لم أذكر أو أعرف من يشبهه.. حتى بعد أن وصفته لي أمّي ظلت ملامحه ضائعة.. وجه في حلم نسيته قفز من دهاليز الذاكرة في واقعة السوق بين حماريْن.

فجاءة، استعاد الوعي حلما لوّن بعدم الفهم سنوات من طفولتي. برزت تفاصيله من أعماق في لا وعيي سحيقة.

حلم تكرّر في ليالٍ عدة ثم غاب فلازمه شعورٌ حيّر عقلي الصغير.. كل صباح تفكَّرت غرابة رؤيا المنام فأدركت، ودون أن أعرف سبباً، أنه من غير الجائز أو المقبول أن أبوح بما يأتيني.. يدرك الأطفال بغريزة فطرية ما يجوز ولا يجوز في ما يتعلّق بأجسادهم.. شعور غامض هداني إلى أنّ في حلمي ما يوجب السكوت.. حاسة خفيّة استشعرت أن ما أراه لا يمكن البوح به.. لم أصنّف حلمي من نوع عيبٍ أو حرام فلم أكن قد وعيت هذا بعد.. فقط كان مجرد إدراك غامض بأنه مما يجب إخفاؤه.. أنه من نوع أفعال وأفكار لا يمكن التصريح بها لأحد فلذت بصمتي.

وأغرب ما في حلم طفولتي الأبعد هو الشعور بالحياد التام مع ما يجري فيه.. أتابع ولا أفهم. لا أرفض ولا أقبل.. فقط لا أفهم.

حلم غاب في عصْف حياتي.. نسيته في وحدة روحي بعد انتزاعي من أسرتي.. تحوّلت أحلامي إلى أمّي وأبي الشهيد وأخويّ فيبكي اشتياقي لهم.

اعتدت البكاء وغيابهم.

التمع حلمي الأبعد وصعق ذاكرتي فسطعت تفاصيله في السوق بينما أتابع ما يجري.

«أجلس على الأرض في ممرٍّ ضيق وأستند بظهري إلى جداره.. رجل كهل يجلس على الأرض وظهره إلى جدار الممرّ الآخر. مقابلي تماماً.. صامت يبتسم مشجعاً كأنما يدعوني إليه وهو يفرد عباءته على ذراعيه ويمدّهما نحوي ليحتويني. بلا كلمات أو صوت يناديني. لا ينطق.. يحثني بعينيه ويدعوني بيديه لأدخل عباءته.. يبتسم ويشجعني.. لا أستجيب ولا أرفض. فقط أتابع ما يدور في دهشة، ومن بين فخذيه يمتدّ أنبوب طويل مدبّب الرأس يحاول الوصول به إليّ ويلاحقني، والرجل مثلي لا يتحرك من مكانه، يلاحقني بأنبوبه ويبتسم.. وأنا أتابع ما يفعل دون فهم ولا أتزحزح أو أتحرك. لا أرفض ولا أقبل.. لا راضية ولا غاضبة. فقط صامتة أتابع في حيرة ثم أصحو.

ظُهْر أحد الأيام افلتت تفاصيل الحلم الغامض ساطعة من لا وعيي حين توقف الباص في سوق الخضار.

هرول السائق والمشرفة واختفيا بين البسطات. علت الجلبة فجأة.. رجل ثائر اندفع نحو ما لم أنتبه له. حماران رُبط كلّ منهما بباب دكّان صغير مقفل.. والمحلاّن متلاصقان.. الرجل يركض ويصرخ وينهر أحد الحمارين بعصا غليظة ليبعده عن الآخر ثم انهال بالعصا عليه.. ومن بين فخذي

الحمار تدلّى ما رأيت مثله في حلم طفولتي الأبعد. أنبوب يحاول الوصول به إلى الحمار الآخر.

فكّ الرجل رسن الحمار من الباب وحاول جرّه.. ضربه بعنفٍ وجاهد ليسحبه والحمار يرفض، صابراً احتمل الضرب، يهمهم ويزبد ويحكّ جسده بالحمار الثاني.. انفلت من الرجل وعاد يشمشم ذيل الحمار الآخر.. جن الرجل وانهال على رأسه بعنف أكبر، أنهكه بالعصا وتعالت شتائمه وصراخه. نهق وحاول عضّ الرجل.

من طرف السوق تنبّه رجل للجلبة فترك ما بيده وركض نحوهم صارخا مولولا.. خطف العصا من يد الرجل الأول وردّه عن ضرب الحمار، وأمسك بتلابيبه وصرخ: لن تفلت مني لو قتلت حماري، ولن يكفيني عمرك مقابله. أهلكته بالضرب.. حرام عليك يا رجل لقمة أولادي من على ظهره.

ردّ الأول: ابعده وإلا قتلتك معه.. لن تنفعني أنت وحمارك إن عشَّرتْ حمارتي، وسيتعطّل مالي ورزق عيالي عشرة شهور.. سبعة في رقبتي يعيشون من على ظهرها.

انكمش ما بين فخذيّ الحمار بالألم وتراخى.. سحبه صاحبه بعيداً وما زال يقاوم وينهق.. تناثرت تعليقات.. أطرقت نسوة بالخجل، همهمت فتيات الدار عن مشهد جنسيّ لم يكتمل.

تلحُّ الأخصائية النفسية لنروي أحلامنا، ما نذكره منها.. القديم والحديث.. قلت إنني لا أحلم فلم تصدّق.. تداريْت بصمتي.. قالت إن العقل الباطن ينفس بالأحلام عمّا يشغله، فعرفت أن لي عقلين باطنا وظاهرا، وكلاهما مشغول بأمر واحد. لماذا تركتني أمّي ولم تعد لأخذي؟

علّمتنا جولات السوق.. أمتعنا ما يدور فيه وأضحكنا وأبكانا.. عالم زاخر بالبشر، باعة ومشترون، سيارات ومشاة.. وجوه عابسة أو مبتسمة، ونساء يبعن ويشترين، وأطفال في عمرنا يلحّون ويستعطفون لينقلوا بضائع المتسوِّقين إلى السيارات، بعربات لها عجلات، أو بسلال أو أكياس على ظهورهم أو فوق أكتافهم.

ولأننا نحب السوق تواطأنا مع المشرفة والسائق فلم نتبرع بتفسير، ولم نضحك ومديرة الدار تؤنبهما، ولم نكذّبهما وهما يبرّران تأخُرنا بزحمة المرور.

ونحن نحشر أنفسنا في كل ما لا يعنينا.. ندلي بآراء وتعليقات فلا يلتفتون إليها أو يؤخذ بها بل يتهموننا بقلة الأدب.

فقط يوم بدأت المشرفة تشتري الخضار لمديرة الدار، غدت جولات السوق علنية وطويلة.

مشاهد من السوق في ذاكرتي لا تُمْحى.

توقف الباص.. هرولت المشرفة إلى حسبة الخضار.. أطلّت رؤوسنا من النوافذ تتابع ما يجري، تبحث عن مثير يخفف رتابة الحياة.

أمسكت مشترية بخنّاق البائع واتهمته بأنه «حاول أن يحسِّس عليها».. ثم رمته بفردة حذائها فطاشت الضربة وأخطأت هدفها.. هاج البائع وحاول ضربها فهاجمته بالفردة الثانية فأصابت صلعته.. ضحكنا وهلّلنا لامرأة لم تخطىء هدفها.. ابتعدت المرأة وهي تلعن « الوسخ ابن الوسخة»! لكنها توقفت فجأة واستدارت عائدة ثائرة وقصفته بشتائمها.. حاول بعض من في السوق تهدأتها وردّها فزادها تدخُلهم هياجا. ركضت نحو البائع وهي تلعن من خلفوه قليل الحياء، فردّ عليها بتلميحات أدركنا

من ولولة الناس وابتساماتهم أنها تجاوزت الحدود: «وعلى شو بدّي أحسّس، ما هو معصعص وناشف مثل وجهك».. سحبه جاره إلى دكّانه وقال: «حرام قذف المحصّنات»! ولم أسمع باقي العراك.. انطلق السائق بنا والمرأة تسدِّد فردة حذائها إلى رأس البائع من جديد.

معركة أخرى في السوق أدمت قلوبنا، وأبكت مريم وزهرة فلم تقربا طعاماً.

وقف الرجل قرب حافلتنا.. أشاح بعضنا عما يفعله وتابعته أخريات بفضول.. حبست الأكفّ انطلاق الضحكات.. والرجل ينقل بصره لا يستقرّ على وجه منا بدأ يفك سرواله.. ونظراته غريبة وهو يهزّ رأسه مستفسراً إن كنا نوافق على ما يفعل.

لمحته المشرفة فاسرعت عائدة ونهرته.. توقف عما يفعل وردّ شتيمتها.. استنجدت بسائق الباص فترك كوب شاي من يده وسحبها إلى الباص وانطلق متفاديا رجلا يتوثب لمعركة.

لاحقتنا شتائم الرجل: يعني الخضرة الشريفة يا صلاة النبي، وإلا حارسة بنات الحسب والنسب، مش كلهن بنات حرام وأمهاتهن....!

فاتني وصف الرجل لأمهاتنا لكني أعرفه.. نسمعه في تلميحات الشفقة وهمسات العطف: الأم أخطأت فما ذنب المسكينة!

أعجبني يوماً قول زائرة ثريّة: الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون.. ثم هزّت رأسها بأسىً وحفظت أنا ما قالت.

* * *

وأخي يحاول إقناعي بالعمل معهم تملّكني إحساس جارف بأنني أستطيع أن أقتله لكني لم أفعل.. ضربته وركلته وبكيت بجنون وهياج، توقف سيْل شتائمي مع انبثاق الدم من أنفي بعد أن صفعني وخرج.

تجاوز همس ثلاثتهم الباب المغلق فتمنيت لو أقتل أخي وهو يتبرّم ويشكو لأمي وأختي من مصاريف تكسر الظهر بعد التحاقي بهم. وأمّي وأختي تتوسّلان أن يصبر علي قليلاً وسأقتنع بالعمل معهم فيزداد هياجه.

هربت منهم إلى حضن عالم فتح لي ذراعيه. عدت إلى دار الرعاية.

وعلى رصيف الحياة التقيته.. طموح كريم وشهم.. بكل حرمان حياتي، بأكثر من عذاب أيامي أحببته.. لكن هل يستحق الحب؟ وقف سؤال كبير بيننا، سؤال سدّ طريق مشاعري فانكمشت.. تخبو جذوة الحب بالأسئلة، يختنق العشق بالتردد والحيرة حين يتساءل الهوى ويحتار.. الأسئلة عدوّة الحب حين تنبع من جوهره.. ما قيمة الحبّ إن لم يجعلك فخورا بمن تحب؟ ليس التفاخر بالحبيب منّة أو هديّة بل هو استحقاق للحبيب.. وما جدوى حبّ لا يقاوم العوائق، ولا يصمد للعواصف ولا يتغاضى عن الحسابات؟. يكبر الحب بالقفز على الحواجز، كل الحواجز.. والتمسك بالحبيب في وجه الحسابات هو روح العشق وجوهر الهوى.

وحبّه لي مغروسٌ في تربة من آراء الآخرين، عميقاً ضربت جذوره فيها.. ترتوي بموروثهم وقناعاتهم.. أينعت ثم ذبلت عواطف هزمتها الحسابات.. وأنا حلمت به شجاعاً.. يواجه الدنيا بي ومن أجلي ويؤمن بنقائي.. يأتي إلى بوّابة دار الرعاية ليخرجني منها، ويعرف أن حبّي يستحق أن يفعل.. مع أهله أو وحده لا يهم ما دام سيأتي.. يسير مرفوع الرأس لأنه

معي.. يقطف الياسمين من حيث نبت وأينع لا من حيث تمنى لو كان.. من يختار قدره وظروفه؟ ألا يعلم أن الأشجار الكبيرة تموت إذا نقلوها؟ وحدها الأشتال الصغيرة تتأقلم في بيئة يغرسونها فيها.

أفتح النافذة كل يوم وأنتظر.. لا يأتي.

7

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ ﴾

[الضحى:6]

ملفّ ماهر آخر أوراق عائلتي الأولى.

الاسم: ماهر ابن المدعوّة سناء عبد الكريم- مجهول النسب

الأم: سناء عبد الكريم.. مجهولة

الأب- مجهول

العمر: ست سنوات

تمّت إجراءات كفالته حسب القوانين المعمول بها من قبل المواطن يحيى محمد أبو الفوارس وزوجته -لا أطفال لهما- بعد التأكّد من إسلامهما الصحيح، وتوفُّر القدرة الماليّة والبيئة الاجتماعية والنفسية الصالحة لكفالة الطفل، وتنشئته والتعهّد بتعليمه ورعايته.

هو الاسم العاشر من عائلة أبو الفوارس في دليل التلفون، فلم يعرف أيٌّ من التسعة قبله عمَّن أسأل. غالبت يأسي وأدرت رقمه.

تفكَّر الصوت قليلا وردّ: آه!.. يحيى أبو الفوارس..أيوه.. أبو محمد! لا أبو ماهر.. ليس للرجل أولاد، لكنهم ينادونه باسم أبيه محمد.. العمر لك.. مات الرجل من سنوات وتقيم زوجته وحدها.

لم أجد صعوبة في الوصول إليها.. العنوان واضح، والضاحية راقية وأسماء شوارعها بارزة.

قالت: سيعود ماهر بعد دوام البنك، ليس قبل الرابعة.

سيدة تجاوزت الستين.. تمشي بتثاقل لعلّه من آلام المفاصل.. تؤشّر هيئتها ولباسها على رغد حياة كانت.

تردّدْتُ في السؤال أن تسمح لي بانتظاره واحترت.. ومثلي تردَّدَت في إغلاق بابها.. أحكمت غطاء رأسها وقالت: تفضّل يا بني تستطيع أن تنتظره هنا.. لا يتأخّر ماهر عن موعده أبدا.

ربما كنت حدثاً مثيراً في رتابة يومها! أو تنبَّهت إلى أنها الثالثة والنصف عصراً ولا وقت لذهابٍ وعودة.

- هناك بيته. وأشارت بيدها نحو سور دارها.

ملحق صغير بجانب السور اقْتُطع من اتساع حديقة جميلة تسوِّرها أشجار عالية.

أصرّت على أن أشرب القهوة فأحضرتْها خادمة أسيوية.

قطعْتُ الصمت وأجبْتُ تساؤل عينيْها.. أخبرتها بقصّتي.. الحقيقية وإن أسقطْتُ معظم تفاصيلها.. قلت إنني في زيارة للبلاد وأردت الاطمئنان على من كانوا يوماً إخوتي.

أشادت السيدة بعمّي وشهامته لكفالته لي وتعليمي، وشكَرَتْ وفائي النادر، كما وصفته، لبحثي عن رفاق طفولتي بعد هذه السنوات.

وجهها سمْح عطوف شديد البياض استسلم لعمره.. وحفرت مخالب الزمن حول عينيها وفمها.

كلّ ما في بيتها أنيق يؤشّر على بذخ مضى.

مسحَتْ دمعة وقالت: الوزارة تطبّق القوانين بلا رحمة.. والقوانين جامدة قاسية لا تعرف العواطف.. هل جرّب أحدهم أن يأخذوا ابنه منه؟. ماهر ابني، وكان ابن المرحوم زوجي كأننا خلّفناه وأكثر..أحسّ به حين يتألم أو يمرض قبل أن يشتكي ودون أن يقول.. أخذناه من الملجأ وظلّ ينام بيننا حتى كبر.. مجتهد.. دخل الجامعة.. مسكين ماهر.. خطف الموت زوجي بالسكتة القلبية قبل أن يفرح بتخرّجه من الجامعة.. كان في السنة الثانية ودرس إدارة أعمال، ليته أكمل تعليمه وعمل ووالده حيّ.. كان سيفرح ويحسّ أنه أدّى أمانته إلى ربّ العالمين.. الله يرحمه ويحسن إليه.

أتعرف لو أن ماهر ابنه ومن صلبه لما حزن عليه أكثر.. كاد ماهر أن يضيع من بعد المرحوم.. من الصدمة وقسوة الناس.. ولولا الله ووقوفي معه لضاع ابني.. اجتمع أقارب زوجي وأقاربي وقالوا: نعيد ماهر إلى الوزارة وهم يتصرّفون به... قلت ماهر تجاوز الثامنة عشرة وسيرمونه في الشارع وسيضيع ما بنيته أنا وزوجي ويضيع ماهر.. والولد ابني.. إذا كان أبوه مات فأنا أمّه وما زلت حيّة.

مسَحَتْ دمعة حزن على زوجها وأكملت: يوم أخذنا ماهر من دار الرعاية أراد زوجي أن يسجّله باسمه فقالوا لا يجوز.. التبني حرام.. وحين مات زوجي أصرّ الأقارب على خروج ماهر من الدار.. قالوا أصبح شابا وهو غريب، لا يجوز أن يراكِ أو يدخل عليكِ وأنت في العدّة، وحرام أن يبقى معكِ تحت سقف واحد.. ولا يدخل عليكِ إلا ومعك خادمة، فما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.. قلت: شيطان يأخذكم! هذا الكلام ليس عن ابني.. قالوا: ليس ابنك، هو رجل الآن وغريب. قلت: هذا ابني حرام عليكم، أنا أمّه ربيته وعلّمته.. قالوا: الشرع والدين.

أتعرف؟ تآمر أقاربي لطرد ماهر بعد موت زوجي.. جمعتهم مع أقارب المرحوم وقلت: اسمعوا ثروة زوجي كلّها باسمي وسأبيع كلّ ما أملك وأتبرّع به لدور الأيتام والفقراء والمساكين لو مسّ أحدكم ابني ماهر.. أما إن أحسنتم للولد فسأترك لكم كلّ شيء بالتساوي.. خافوا.. مع أنهم في وظائف كبيرة ومتنفذون وأغنياء، لكنْ بني آدم طمّاع.. بنيت له الملحق في الحديقة لأسكتهم.. أكمل ماهر دراسته، وعيَّنه ابن أخت لي في بنك هو رئيس مجلس إدارته.

لم أقاطع أو أعلّق، فقط أهزّ رأسي وأوافق.

سرح نظرها من نافذتها الواسعة فجأة.. أضاء الفرح وجهها وأعلنت: وصل ماهر.

طويل شديد الوسامة أنيق في بدلة موظّفي البنك.. قبّل يدها واستغرب وجودي.

- أخوك الدكتور سفيان....؟ قالت بمرح وعطف.

أكملْتُ له اسمي فازدادت حيرته.

أجلسَتْهُ إلى جانبها وفسّرت: كنتما معا قبل أن يأخذك المرحوم.. هو مثلك ترك الدار وعاش مع عمّه في دبي.

اختصرْتُ قصة عثوري على عمّي والتحاقي به، وبحثي عمّن كانوا إخوتي.

- وهل وجدتهم؟... سأل بغير لهفة.

- ما زلت أبحث عن بعضهم.

لم يبد رغبة في التفاصيل... لم يكترث ولم يسأل.

بيته غرفتان وصالة شديدة الأناقة، ويطلّ مطبخه على كراج واسع فيه سيارتان.

أحضرَت خادمة الغداء لكلينا.

أرمي شباك الكلام لأصطاد تحفظ ماهر فقطعْتُ صمتاً امتدّ قلت:

- يبدو أننا المحظوظان الوحيدان من أسرتنا الأولى.

- هذا يعتمد على مفهومك للحظ.. ردّ ببرود لا يخلو من جفاء.

- أعني أننا تعلّمنا وتربينا ونعمل في وظائف جيّدة، ماذا كنا نتوقع لو بقينا في دار الرعاية؟

- أنت المحظوظ على ما يبدو.. هي لي مجرد حياة .. قال وحَزِنْ.

وقت كثيرٌ مضى قبل أن يقرِّر ماهر الحديث.. بينما نشرب الشاي قال: نجحت في دراستي وعملي من أجلها. أرادت أمّي أن أنجح ففعلْت.. لم استطع أن أكسر قلبها أكثر بعد وفاة زوجها.. أبي.. أحبُّها صحيح، وأحببْته صحيح.. ربما أكثر من نفسي.. لكنهما فكّرا بنفسيهما أكثر مما فكّرا بي.. ما فعلاه كان من أجل سعادتهما حين لم ينجبا.. أرادا طفلاً يربيانه.. أيّ طفل.. أنا أو غيري، كان سيُعامَل مثلي، وأخطأت الوزارة حين تركتني لهما وهي تعرف جوْر قوانينها.. كنت صغيراً ففرحت بحياة الترف.. اعتقدت أنهما لي وهذا بيتي.. عشت حياة منحتني كلّ شيء وإن وجّهت لي ضربة تلو أخرى.. أتعرف معنى أن يرفعك أحدهم عاليا ثم يخبطك بالأرض فتتحطم؟ أنا تحطّمت مرّات منذ عرفتهم. ليتني بقيت في الدار.

- ربما كنت في الشارع الآن.!.

لم يلتفت ماهر لقولي فواصل: كنت أسمع أقاربهم في الزيارات والأعياد يتهامسون عن إهدار المال في تربية طفل غريب لا أصل له؟ بل حرّض بعضهم أبي ليعيدني إلى الدار.. لاموه كثيراً على مصاريفي وتعليمي.. سمعتهم لأن أحداً منهم لم يحرص على أن لا اسمع.. قالوا: الولد الذي من صلب الرجل ومن لحمه ودمه بالكاد ينفعه، فكيف ابن الحرام؟. نظراتهم تترصّدني وتشكّك في تصرّفي.. في عيونهم كره لم تخفه ابتسامات مبتسرة وكلمات التزلّف لأمّي وأبي.. أما ما لم أحتمله فكان يوم مات أبي ..تصوّر لم يخبرني أحد حتى عدت من الجامعة.. كانوا في الدار وهو غائب.. نقلوا جثته إلى المستشفى دون أن يفكّر أحد بالاتصال بي.. اندفعت لأحمل نعشه فلم يتركوا لي مجالا.. لحقت بنعشه أناديه فأشفق أحدهم وأفسح لي مكانا.. عدت من المقبرة لأرتمي في حضن أمّي فردت النساء فجيعتي عن بابها قلن: لا يجوز لك أن تراها وهي في العدّة.. صرخت: لكنها أمّي.. أجبن: ليست أمّك.. وحرام أن تظهر على غريب.. حين تنتهي عدّتها تراها.. سمعْتها تنوح وتصرخ.. أبعدني الرجال عن بيتها.. في عيون أقاربها عداء لا يخفونه منذ رحل أبي.. بل قاطعها بعضهم لأنها تصرف عليّ.. أنا لا أريد شيئا منها.. أريد فقط أن تبقى أمّي.. والدي سجّل لي قطعة أرض صغيرة بيعاً وشراء قبل أن يموت، وأودع باسمي حساباً صغيرا في البنك.. كلُهم ينتظرون موت أمّي ليطردوني من هذا الملحق.. أعرف.

- وتقول إنهما لم يفكّرا إلا في نفسيهما؟

- كان يجب أن يتركاني للعائلة الأخرى.. أخبرتني أمّي عن عائلة نمساوية طلبت أن تتبناني في الوقت نفسه، فوضعت الوزارة العراقيل لأنهم...

- كنت مطلوباً منذ الصغر ويتنافسون عليك.. قاطعْتُه ضاحكا لأخفف من توتره.

لم يلتفت ماهر لتعليق بدا سخيفاً وفي غير وقته فانكمشْت بالحرج.

- لو تبنتني العائلة النمساوية لتجنبت كثيراً من الألم.. تصوّر يا دكتور.. في يومي الأول في المدرسة، نادى المدرّس على اسمي ثلاث مرات فلم أردّ لأني لم أعرف أنه اسمي ولا أنه يناديني، فلطشني وقال إنني أهبل فبكيت.

رويت لوالدي ما حدث فأشاح ولم يجب وألهاني بأشياء أخرى، لكنه وهو يساعدني في كتابة اسمي على الكراسات كتب اسما نادوني به فاستنكرت ورفضت صارخا: لماذا تكتب على دفاتري اسما ناداني به المعلم.. قال وأرعبني وجهه.. أمْر الله يا سفيان..لا يجوز أن أكتب اسمي بل هذا الإسم رغم أنك ابني كأنني أنجبتك. سألته، هل هو أبي؟ قتلني طول حيرته ثم قال: الله وحده يعلم من هو أبوك.. فسألته عن اسم نسبوني إليه فقال: هو مجرّد اسم ليستخرجوا شهادة ميلادك، ويسيّر حياتك يا بني.

بكيت وبكى معي.. رفضت وصرخت بأني أريد اسمه ولا أريد أبا سواه فحضنني بعجزه وهدهد خوفي وقال: الأسماء بالمجّان لمن يريد لكنك ابني وحبيبي.. أنا وحدي أبوك ومهما كتبوا على دفاترك أو في شهادة ميلادك.. فسألته وأمّي هل أنجبتني؟ أشار إلى زوجته وأكّد: هي أمّك، ليس لك غيرها لكنها لم تنجبك.. ركضْت إلى حضنها يسابقني خوفي وسألتها عمّن أنجبتني فردّت بأسى: وحده الله يعلم، ثم حضنتني وبكت، قالت لم أنجبك صحيح ولكني أمّك وأنت ابني.

طال ليل بكائي والأرض تغوص بي وتنخسف. سألت الله عمن أنجبني ورماني؟ فلم يجب.

أجلستني أمّي بجانبها وقربتني من دفء صدرها فسألت ؟ لماذا لا يخبرني الله عمن أنجبني ما دام وحده يعلم؟

انتحبت أمّي ومسح أبي دمعه وقال إن الله يحبّ الناس، لكنه يجرّب إيمانهم فيبتليهم، ومن يصبر يعوّض رب العالمين صبره. وربما قدر لي هذا ليصبحا والدي وأعيش معهما ولا ينقصني شيء.

غمرني دفء حضن أمي وحنان وعطايا أبي فظلّ السؤال الكبير يرتفع بيننا.. من أنا؟

فكّرت بالهرب لأبحث عمّن رماني فردّني خوفي.. حنان أبي وأمي جعلني أحتمل.. علّمني أبي أن أرضى بما أنا فيه خوفاً من الله، فتقبّلت حياتي حتى فجيعتي الكبرى بموته.. كنت في بداية سنتي الثانية في الجامعة.. ردّتني النساء عن باب أمّي فأخذني ابن أختها إلى بيته إرضاء لها.. عشت مع الناطور في ملحق خارجي.. لم أحتمل بعدي عنها، ولا ضيق قربها بوجودي.. تركت الجامعة وبدأت أتجوّل في الشوارع حتى انتهاء الدوام لأعود.. ثم لم أعد أحتمل.. هربت.. من نفسي وأسئلتي وبعدي عن أمي وموت أبي. تشرّدْت وتهت في الأزقة، نمْت فوق الأرصفة.. هدّني الضياع والخوف والجوع والبرد ولم تسكن هواجسي... كرهت رائحتي واتسخت ثيابي.. لم يبق مسجد إلا دخلته لأنام وأتشطّف حتى لم أعد أحتمل أو أطيق ضياعي.. عدت إلى أمّي فأحزنني حالها وبكاؤها علي.. قالت لا تهدم ما بناه أبوك.. سيتعذّب إن لم تحقق ما تمناه لك.. وسيفرح ويرتاح في قبره لو نجحت.

عدت إلى الجامعة.. تخرّجت إشفاقاً عليها.. عملت في البنك بمساعدتها.. ثم بنت لي هذا الملحق.. حياتي مريحة.. الآن.. لكنْ من يعرف ما يحمله الغد، أو بعد ساعة؟ لو ماتت أمّي فسيطردني أقاربها في اللحظة.

- لم لا تتزوج لتفرح أمك وتبدأ حياتك بعيداً عن أقاربها؟

- ومن ترضى بمجهول النسب يا دكتور؟ لو تركتني الوزارة للعائلة النمساوية لمنحني الرجل اسمه وجنسيته وعائلته، وكنت تزوَّجت وتعلّمت وتربيت في عالم لا يحاسب من هم مثلي.. أتدري لماذا رفضت الوزارة تبنيهم لي؟ قالوا لا ولاية لغير المسلم على مسلم.. وإذا أرادوا تبني الطفل فليشهروا إسلامهم، ونراقبهم ثلاث سنوات للتأكد من أن إسلامهم صحيح، ثم يلتحق الطفل بهم.. وفي بلادهم يمكن تطبيق إجراءات التبني حسب قوانينهم.. أي تعجيز هذا يا دكتور؟ ثم من أدراهم ابن من أنا؟ ماذا كانت ديانة أمّي أو أبي أو أيّ شيطان ألقى بي على الرصيف وتركني؟ مسيحي أو يهودي أو من عبدة النار؟ لكنهم أصرّوا على أن أبناء الريح مسلمون ما دامت عصفت بهم أقدارهم على أرض مسلمة.

لم أملك إلا أن أغيّر الحديث ليهدأ.. سألته: ألا تذكر أحداً من أسرتنا الأولى؟

- أذكر.. كأنها في حلم.. فتاة صغيرة جميلة كانت تبكي دائماً.. والآن كأنني أتذكّرك.

تجاوزْتُ مجاملته عن تذكري قلت:

- هي الآن أجمل.. نادرة سيف حميد.. لن تصدّق جمالها.. صبية فاتنة.. خذ عنوانها.. قد تتآلف القلوب ما دمت لم تنسها. جرِّب.. وضحكْتُ.

من على مكتب صغير أمام نافذة الصالة، وفي ورقة صغيرة كتبْتُ اسمها ومكان عملها ورقم هاتف العمل.

دسّ العنوان في جيبه.

عانقني ماهر بحرارة.. وشكر بحثي عنه، وتمنى لي التوفيق.

ولم يطلب ماهر عنواني.

SONS OF THE WIND

روايات

أبناء الريح

◆ وجدوا خرطوم الماء بين أغصان الصنوبر فقطعوا الشجرة.
الهروب بالخرطوم والشجرة من أفكار يحيى .. لسنوات ظلّت تلك الشجرة أمامنا .. كبرنا وهي هناك .. تجاوزت أغصانها ارتفاع السور فلم تثر ريبة مسؤولي الدار، ومثلها خرطوم الريّ .. لم يُغونا أحدهما بالهرب.
بل قبل يحيى لم نفكّر بالهرب.
وحده جعل الشجرة والخرطوم طريقًا للخروج إلى عالم قال لنا إنّه أحنّ علينا من الدار .. طعام وسينما وأسواق ونقود في أيدينا لن تنقطع .. كلّ ما علينا هو إقناع الناس الطيّبين، عند إشارات المرور وأمام المطاعم ودور السينما، ليعطوا، وأضحكنا كثيرًا قاموس شتائمه السريّة لمن يبخل منهم أو يجود بقليل.
لم نتصوّر، قبل يحيى، أنّ الحياة مغامرة. أمّا بعده فضقنا بحياتنا حتّى الفرار منها.
صدّقنا يحيى حتّى اندفاع التجربة.
حكايات يحيى أرواح هائمة خطفتنا .. جوارح انقضّت على لياليا وحلّقت بها.. نسمات حرّيّة لم نجرّب طعمها.
تنادينا حكمة تفترش الأرصفة، وتجارب تصقل النفوس.

مكتبة نوميديا 218
Telegram@Numidia_Library

ISBN 978-6589-09-594-9
9 786589 095941

الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2012
الغلاف: ستوديو ® ☎ 95297109 7 00962